بحث بعنوان:

(محمّد جمال الدّين القاسمي الدّمشقي مفسّرًا)

د. عبد العزيز حاجي

منشور في مجلة "التراث العربي" العدد : (112) (ذو الحجة) 1429هـ . (كانون الأول) 2008م السنة الثامنة والعشرون.

محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي مفسراً

الحمد لله القائل في كتابه الكريم ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [المجادلة: 11] والصلاة والسلام على معلم البشرية القائل: ((العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم))[1] وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، ورحم الله العلماء العاملين الذين حملوا لواء العلم والمعرفة، وخدموا الأمة وطلاب العلم، وبعد:

فقد كانت دمشق حاضنة العلم ومستقرَّ العلماء في مختلف ميادين المعرفة والعلوم منذ أن أشرقت بنور القرآن والإسلام، ولا زالت، ومنها العلوم الإسلامية بفنونها المتنوعة، وبرز فيها علماء أَعلام ومجددون في الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية قديماً وحديثاً.

ومن أُولئك الأَعلام المجددين وحاملي لواء الإصلاح الشيخ الفاضل محمد جمال الدين القاسمي الذي لمع نجمه في سماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، وذاع صيته في البلاد، وانتشر ذكره في الآفاق، وشارك في كثير من العلوم والفنون وترك فيها مصنفات جليلة تدلُّ على سعة علمه وعمق ثقافته وتألقه في الموضوعات التي تناولها بالمعالجة والمناقشة، وقد تناول الباحثون جوانب عديدة من شخصيته الثقافية والعلمية بالدراسة، ومع ذلك فإن هذه الدراسات – من وجهة نظري– تعدّ قليلة بالنَّظر إلى مكانة الشيخ جمال الدين العلمية المرموقة، وما كان له من أثرٍ في بيئته ومجتمعه؛ فجهوده العلمية المباركة في التصنيف والتأليف، وإسهاماته الفكرية بحاجة إلى المزيد من الدراسات للوقوف على مسيرتِه العلمية والدعوية ومنهجه في التأليف وأثر إنتاجه العلمي الغزير على طلابه وتلامذته؛ ولِذَلك فقد رأيت أَن أتناول جانباً مهماً من جوانب شخصيته العلمية الثرة بالدراسة، وهو منهجه في تفسيره ((محاسن التأويل)) لما لهذا التفسير من قيمة علمية فائقة في المكتبة الإسلامية في مجال الدراسات القرآنية؛ فهو موسوعة علمية تفسيرية جمعت كثيراً من أَنواع العلوم الدينية بأسلوب شيق وترتيب فائق، وجاءت هذه الدراسة في مقدمة ومبحثين وخاتمة ألمحت المقدِّمةُ إلى أهمية الموضوع، وذكرت الخطة، وأشارت إلى بعض الدراسات السابقة والمنهج المتبع في المعالجة وتناول المبحث الأول: التعريف بالقاسمي وتراثه العلمي من خلال ثلاثة مطالب، تحدث المطلب الأول عن نسبه ومولده ونشأته العلمية وشيوخه، وكان موضوع المطلب الثاني الحديث عن صفاته ونشاطه العلمي وتلاميذه، وختم المطلب الثالث المبحث الأول بالكلام عن وفاته وأهم آثاره العلمية.

وعرَّف المبحث الثاني بكتابه ((محاسن التأويل)) من خلال مطلبين، تناول المطلب الأول الحديث عن حجم الكتاب ومقدمته وما جاء فيها، وورد في المطلب الثاني الحديث عن طريقته العامة في التفسير ومنهجه فيه، وجاءت الخاتمة لتلخص أهمَّ النتائج التي انتهى إليها البحث.

---

[1] أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان وغيرهم. ينظر: سنن أبي داود، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، 237/4 (3636)، سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة: 325/7 (2683)، صحيح ابن حبان، كتاب العلم، ذكر وصف العلماء الذين لهم الفضل: 289/1 (88).

وأما الدراسات السابقة الخاصة بهذا الجانب– التي اطلعت عليها فهي:

– القاسمي ومنهجه في التفسير للدكتور محمد بكر إسماعيل[1]، تناول مؤلفه فيه الحديث عن حياة الشيخ وتفسيره باختصار شديد من غير توثيق على الأغلب، ويبدو أنه كان بحثاً ثم طبع في كتاب؛ فعدد صفحاته مع الفهارس (88) ثمان وثمانون صفحة.

– اتجاهات التفسير في العصر الراهن للدكتور عبد المجيد عبد السلام المحتسب[2]، تناول المؤلف الحديث عن تفسير القاسمي في الفصل الأول تحت عنوان: (اتجاه سلفي) مع تفسيرين آخرين وهما: التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب، وكان جلّ ما ذكره من تفسير القاسمي يخدم العنوان مع الإشارة إلى بعض القضايا الواردة في هذا التفسير باختصار ودون ترجمة لحياة مؤلف التفسير.

– مناهج المفسرين في تفسير آيات العقيدة للدكتور عبد العزيز حاجي[3]، وكان التركيز على منهجه العقدي في التفسير مع ترجمة مختصرة في الهامش.

– جهود علماء الشام في تفسير القرآن الكريم للباحث أحمد قباوة[4]، وقد تناول الباحث الحديث عن تفسير الإمام القاسمي في المبحث الأول من الفصل الأول المعنون بـ ((التفاسير التقليدية)) باختصار وأشار إلى بعض القضايا ليؤكد من خلالها على أن هذا التفسير من التفاسير التقليدية التفصيلية.

هذا بالإضافة إلى الدراسات التي تناولت الحديث عن حياته عموماً، وكتب التراجم العامة غير أن أهم ما ينبغي الإشارة إليه من هذه الأعمال العلمية:

– جمال الدين القاسمي أحد علماء الإصلاح الحديث في الشام[5] للدكتور نزار أباظة ضمن سلسلة أعلام المسلمين، وقد أفاد الباحث مما كتبه الباحثون عن حياة القاسمي وتراثه العلمي من دراسات سابقة– كما ذكر في المقدمة– واستطاع أن يجمع معلومات قيمة ويدونها في كتابه.

وعلى العموم فإن هذا البحث قد أفاد من مجموع الدراسات السابقة أيما إفادة وحاول أن يجمع من مزاياها الشيء الكثير، وأن يضم إلى ذلك ما توصل إليه من قضايا تفسيرية من خلال نظرات فاحصة متأنية في التفسير.

ولم يقتصر البحث في معالجته للمسائل التي تناولها، وإيراده ما أورد على منهج واحد من مناهج البحث، بل استخدم أكثر من منهج؛ فاعتمد على النقل والتاريخ والوصف في الحديث عن حياته الشخصية والعلمية، واستقرأ الأغراض التفسيرية في الكتاب وطريقة عرضه لها للوقوف على منهجه العلمي في البحث، وحلَّل وناقش الأمثلة والنماذج التي جاء بها للتدليل على الأحكام التي أطلقها في البحث، وحاول البحث جاهداً أن لا يكون صورة مكررة عن أي بحث آخر، وأن يكون له ما يميزه عن غيره من أساليب العرض والمناقشة والمعالجة والله ولي التوفيق.

---

[1] مطبوع عام 1991م في دار المنار بالقاهرة.

[2] مطبوع ومن منشورات مكتبة النهضة الإسلامية– عمان– الأردن، الطبعة الثالثة 1402هـ – 1984م.

[3] رسالة دكتوراه قدمت إلى كلية دار العلوم– جامعة القاهرة وأجيزت بمرتبة الشرف الأولى عام 1998م، وطبعت في ((دار الصابوني)) بالقاهرة بعنوان ((تفسير آيات العقيدة...)) في مجلدين وتاريخ الطبعة الأولى 1424هـ – 2003م.

[4] رسالة ماجستير قدِّمت إلى كلية دار العلوم– جامعة القاهرة 1425هـ / 2004م وأُجيزت.

[5] مطبوع في دار القلم بدمشق 1418 هـ/ 1997م الطبعة الأولى.

المبحث الأول: التَّعريف بالقاسمي وتراثه العلمي[1]:

يتناول هذا المبحث التعريف بالعلامة القاسمي وتراثه العلمي من خلال ثلاثة مطالب، وهي:

المطلب الأول– نسبه ومولده ونشأته العلمية، ويتناول ما يلي:

أولاً– اسمه ونسبه وكنيته: هو جمال الدين– أو محمد جمال الدين– بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق بن صالح بن إسماعيل بن أبي بكر المعروف بالقاسمي نسبة إلى جدّه المذكور، ويتصل نسبة إلى الحسين السِّبط[2]، وكنيته أبو الفرج، وللشيخ جمال الدين نسب آخر من جهة جدته لأبيه أثبته في كتابه: ((شرف الأسباط)) [3] ذكر أنه محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن عائشة بنت فاطمة بنت محمد الدسوقي إلى أن أوصل السلسلة إلى أبي عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

ثانياً– ولادته[4]: ولد الشيخ القاسمي في مدينة دمشق في ضحوة يوم الاثنين الثامن من شهر جمادى الأولى سنة (1283 هـ) ثلاث وثمانين ومائتين وألف من الهجرة النبوية الشريفة الموافق لليوم السابع عشر من شهر ايلول سنة (1866هـ) ست وستين وثمانمائة وألف من الميلاد. في أسرة طيبة خدم أفرادها العلم عرفت بالأُسرة القاسمية.

ثالثاً– نشأته العلمية وشيوخه:

نشأ الشيخ جمال الدين في بيت علم وفضل، فكان والده وجدُّه من المعروفين بالعلم والأدب ومكارم الأخلاق، وقد ظهرت عليه مخايل النَّجابة والنبوغ منذ نعومة أظفاره، فما إن بلغ سن التحصيل حتى أقبل على تلقي العلوم على يد علماء عصره المشهورين، وكان مواظباً على حضور الدروس في مختلف الفنون والعلوم وأجازه كثير من علماء عصره، ولم تقتصر ثقافته على العلوم الشرعية التي برز فيها ومال إليها، بل كان ملماً ببعض العلوم الحديثة لتكون عوناً له على فهم أسرار الشريعة. ومن أشهر العلماء الذين كان لهم أثر في نشأته العلمية ونبوغه:

---

[1] انظر– في ترجمة الشيخ القاسمي– ترجمة السيد جمال الدين القاسمي بقلم شقيقه الأستاذ قاسم خير الدين القاسمي في مقدمة كتاب دلائل التوحيد 3 – 7 ، جمال الدين القاسمي وعصره، ظافر القاسمي، شيخ الشام جمال الدين القاسمي، محمود مهدي استانبولي: 15 وما بعدها، قاموس الصناعات الشامية، محمد سعيد القاسمي وغيره: 1 / 191 – 205، الأعلام للزركلي: 2 / 135، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة: 3 / 157 – 158، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، محمد مطيع الحافظ، ونزار أباظة: 1 / 298 – 311، جمال الدين القاسمي أحد علماء الاصلاح الحديث في الشام للدكتور نزار أباظة: 65 فما بعدها، وغيرها.

[2] انظر: شرف الأسباط، للمترجم له: 62 فما بعدها.

[3] انظر: 82 – 83 ، جمال الدين القاسمي.. للدكتور نزار أباظة: 65.

[4] انظر: الأعلام: 2 / 135، معجم المؤلفين: 3 / 157 – 158، جمال الدين القاسمي وعصره: 22، جمال الدين القاسمي..: 93.

– الشيخ عبد الرحمن بن علي بن شهاب المصري نزيل دمشق ومؤدِّب الأطفال في مكتب (كتاب) القنوات قبالة جامع الشاذبكية، فتعلَّم منه تلاوة القرآن وترتيله وكان قد سعى به أبوه إلى الشيخ المذكور، فقام عليه خير قيام مع من كان يقوم عليهم من أطفال المحلة[1].

– الشيخ محمود بن محمد بن مصطفى القوصي[2] الخطَّاط نزيل دمشق، وقد تعلم منه الكتابة والخط، وبقي عنده ثلاث سنين، وكان ذلك في تربة درويش باشا في القبة التي على الساباط جوار جامع الدرويشية على الجادة حيث كان يسكن هذا الخطاط.

– الشيخ الصوفي الشاعر رشيد قزيها المعروف بابن سنان (1333هـ– 1914م) وقد قرأ عنده مقدمات في علوم شتَّى من توحيد وصرف وبيان وعروض، وكان ذلك في تربة الملك الظاهر[3].

– الشيخ أحمد الحلواني الكبير (1307هـ – 1889م) شيخ قراء الشام في عصره، فقد جوَّد عليه القرآن وختمه، وحضر دروسه في شرح الجزرية لشيخ الإسلام زكريا بن محمد الأنصاري (926هـ) مرتين، وقد بقي ملازماً للشيخ مدة تزيد عن ثماني سنوات[4].

– الشّيخ سليم العطار (1307هـ – 1889) أَحد مشاهير علماء دمشق آنذاك – وقد قرأ عليه في داره الكتب التي درج أَهل العلم بالشام على إِقرائها، منها شرح شذور الذهب لابن هشام الأنصاري (761 هـ) وشرح ابن عقيل بهاء الدين عبد الله ت (769 هـ) على ألفية ابن مالك محمد جمال الدين (672 هـ) ، وتفسير القاضي ناصر الدين البيضاوي (685) هـ وغيرها، وقرأ عليه كتباً أخرى في مختلف أنواع العلوم، وقد كتب له شيخه العطار إجازة عامة بجميع مروياته بتاريخ (1301 هـ – 1883 م) وكان الشيخ القاسمي قد بلغ الثامنة عشرة من عمره[5].

– الشيخ بكري العطار (1320هـ 1902 م) وقد نهل من علمه الكثير، فقرأ عليه كتباً في اللغة والنحوِ والصرف والمنطق والعقيدة وأصول الفقه، وحصل على إِجازة مكتوبة من شيخه بتاريخ (1302هـ – 1884 م)[6].

– الشيخ محمد بن محمد الخاني (1316هـ– 1898م) شيخ المتصوفة في الطريقة النقشبندية – آنذاك – وقد قرأ عليه عدداً من كتب التصوف، ولم يقتصر أخذه عن الشيخ الخاني على التصوف بل اغتنم ما عنده من العلوم فقرأ عليه كثيراً من الحواشي والكتب الأخرى في المنطق والعقائد والفقه وعلوم الحديث، ويظهر أَن الشيخ

---

[1] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره، ظافر القاسمي: 23 – 24، قاموس الصناعات الشامية: 2 / 192، جمال الدين القاسمي، د. نزار أباظة 95.

[2] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 24، جمال الدين القاسمي: 95.

[3] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 24، قاموس الصناعات الشامية: 1 /192، جمال الدين القاسمي: 95 – 96. وللتوسع في ترجمة الشيخ قزيها – انظر: تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري: 1 / 316.

[4] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 25، جمال الدين القاسمي: 96، وانظر – ترجمة الشيخ الحلواني –: تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري: 1 / 78 وما بعدها.

[5] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 25 – 26، جمال الدين لقاسمي : 97. وانظر – ترجمة الشيخ سليم –: تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري: 1 /89.

[6] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره، 26، جمال الدين القاسمي: 99. وترجمة الشيخ بكري في: تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري: 1 /197 وغيره.

الخاني كان له مكانة خاصة في قلب تلميذه جمال الدين؛ فقد قال فيه: ((من أفضل أشياخي، الذين انتفعت بمجالسهم وتأدبتُ بآدابهم واغتبطت بصحبتهم)) [1].

ومن الذين انتفع القاسمي بعلمهم وأخذ عنهم مع هؤلاء الأشياخ الأفاضل الذين سبق ذكرهم:

– والده محمد سعيد القاسمي (1317هـ – 1899 م) الذي كان فقيهاً وأديباً فنهل من علمه وفقهه وأَدبه الشيء الكثير [2].

– والشيخ حسن بن أَحمد جُبَيْنة الشَّهير بالدسوقي خال والده وتلميذ جده قاسم الذي قرأ عليه عدداً من الكتب في الفقه والسيرة والحديث، وانتفع به في أسلوب حياته وأخلاقه الحسنة، إذ يقول فيه: ((وقد انتفعت بصحبة هذا الأستاذ، وتهذبت بآدابه وإرشاداته ونوادره عن الأقدمين، وكان يحضّ على الأخلاق الحسنة دائماً ..)) [3] وكان الشيخ المذكور قد كتب إجازة عامة بما قرأ عليه[4].

ولم يكتف الشيخ جمال الدين بما قرأه على شيوخه وما أخذه عنهم، وإنما كان يكبُّ على كل ما يصل إليه من مصنفات يقرأُها ويطلع عليها ويفيد منها.

وفي سبيل المزيد من التعمق في العلم والفهم والتحقيق– صحب جماعة من زملائه المتألقين فهماً وعلماً وفكراً نيراً، وأخذوا يدرسون ويطالعون في مصنفات مفيدة؛ فانتفع بهم وانتفعوا به ومن أشهرهم: الشيخ عبد الرزاق البيطار (1335هـ – 1917م)[5] والشِّيخ طاهر الجزائري (1338هـ – 1920م)[6].

وكان مواظباً– أيضاً– على قراءة المجلات العلمية والتَّاريخية والأَدبية كالمقتبس والمقتطف والهلال والمجلات التي تصدرها الجمعيات الدينية المسيحية كمجلة المشرق، وفي أواخر حياته أخذ يتعلم العلوم الكونية كالجغرافية والفلك وغيرها[7]. وبذلك فقد كان الشيخ جمال الدين القاسمي من المبرّزين في عصره، وتميَّز على أقرانه بما جمع من العلوم والمعارف والفنون حتى غدا إماماً من أئمة الشام الكبار.

---

[1] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 26 – 28، جمال الدين القاسمي: 101. وانظرِ ترجمة الشيخ الخاني: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر،عبدالرزاق البيطار:: 3 / 1215.

[2] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 24، وللتوسع في ترجمة والد القاسمي انظر: قاموس الصناعات الشامية: 1 /8 وما بعدها. معجم المؤلفين المعاصرين: 2 / 608، جمال الدين القاسمي: 71 – 76.

[3] جمال الدين القاسمي وعصره: 28 . وانظر: جمال الدين القاسمي: 104 – 105.

[4] انظر : المرجعين السابقين . وانظر ترجمة الشيخ جُبَيْنة: معجم المؤلفين: 3 / 201، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري: 59/1 وما بعدها.

[5] للمزيد من التعرف على حياته انظر ترجمته في الأعلام: 4 / 125، معجم المؤلفين: 5 / 217 ، جمال الدين القاسمي وعصره: 383 – 391، معجم المؤلفين المعاصرين: 1 /342.

[6] انظر– ترجمته– في الأعلام: 3 / 221 – 222، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري: 1 / 366– 380، معجم المؤلفين المعاصرين: 1 / 290.

[7] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 79 – 81 ، جمال الدين القاسمي: 110.

المطلب الثاني: صفاته ونشاطه العلمي، ويتناول ما يلي:

أولاً– صفاته الخِلْقية والخُلقية:

لقد تحدث المترجمون له عن صفاته الخلقية وشمائله الخلقية، ومما ذكروه من صفاته الخِلْقية ؛ أَنَّه كان رجلاً أبيض الوجه، أسود اللّحية كثيفاً، رقيق البنية، نحيل الجسم ضعيفه، مربوع القامة، أقرب إلى القصر منه إلى الطول، وكان ذا وجه نوراني محبباً إلى النفس، غضيض الطرف، كثير الإطراق، خافض الصوت، ثقيل السَّمع، دائم التبسم، خفيف الروح إلى غير ذلك[1]، وأَما شمائلهُ وصفاته الخُلقية، فقد اتفقت كلمة المتحدثين عنه على أَنه كان يتمتع بجملة من المزايا الكريمة التي فطره الله عليها؛ فقد عرف بوداعته وأُنسه وبشاشته ولين عريكته ولطف معشره وحسن معاملته مع أهل أسرته وغيرهم، وكان يأنس بوالديه ويحترمهما ويسعى دائماً لإدخال السرور إلى قلبيهما، وظلَّ باراً بهما حتى بعد وفاتهما في الدعاء لهما وزيارة قبريهما والاهتمام بذَلك[2].

وكان القدوة في تعامله مع زوجه وإخوانه وأَولاده[3]، وقد عُرِفَ عنه – أيضاً – أنه كان عفَّ اللسان والقلم لم يتعرَّض بالأذى لأَحد من خصومه سواء أَكان ذلك في دروسه الخاصة أَو العامة أَو في مجالسه، ولم يكن يحب المراء ولا كثرة الجدال، وإنما كان يناقش الآخرين بأسلوب هادئ متلطفاً في المناظرة، يسوق الأدلة والبراهين من القرآن والسنة وأقوال الأئمة بغرض الوصول إلى الحقيقة بعيداً عن التهجم على خصومه أو الاستخفاف والاستهزاء بهم حتى إنّه كان إذا لقيه المماحك[4] في أَحد المجالس عرضاً أَو غشيه في دروسه أو بيته ناقماً أو ناقداً علَّمه من حيث لا يشعر وهداه إلى المحبة بكيس القول، وساق إليه الحجج، فإذا أيقن أَنَّه كان المكابرين أَعرض عنه، وقال سلاماً [5]، ولذالك عظمت مكانته في نفوس كثير من مخالفيه فضلاً عن الموافقين له؛ فأَقرُّوا له بالفضل والنباهة واعترفوا بقصور كثير من المشاهير عن إدراك شأوه.

ومن الصِّفات الأُخرى التي ذكرها تلاميذه والمترجمون له، وكان لها الأثر الكبير في نجاحه والوصول إلى المكانة التي تبوأها في عصره – أَنَّه كان سخياً جواداً كريماً على قلة ذات يده، عفيفاً مترفعاً عن أموال الناس بعيداً عن طلب المنافع والتكسب؛ لم يجعل الدين سلّماً إلى الدنيا، بل عاش على الكفاف، وفرغ قلبه ووقته للعلم والعمل النافع، واستغل أوقاته الاستغلال الكامل؛ فهو إماً في طلب علم أَو مطالعة كتاب أَو تدريس أَو كتابة وتأليف فبارك الله في عمره القصير، فكثرت مؤلفاته ومصنَّفاته، ولو قيست هذه المصنفات بمصنفات المكثرين في التأليف من المتأَخرين كأَمثال الإمام السيوطي (911) هـ وغيره مع مراعاة الفروق بين العصور والبيئات – لما قلَّ عن اللحاق بهم[6]. وكان إلى جانب ذلك كله حريصاً على دينه، معتزاً به يتجنب كل ما من شأنه أن يسيء إلى عقيدته، وكان مقداماً وجريئاً في مواقفه وتنفيذ ما يعتقده صواباً دون تردد ولا إبطاء [7].

---

[1] انظر: المنار مج 17، ج 8 / 364، جمال الدين القاسمي وعصره: 188، 613 شيخ الشام جمال الذين القاسمي: 21.

[2] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 188 – 189، جمال الدين القاسمي: 161.

[3] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 190 – 198، شيخ الشام جمال الدين القاسمي: 19، جمال الدين القاسمي: 162.

[4] المَحْكُ: المشارَّة والمنازعة في الكلام، والتمادي في اللَّجاجة عند المساومة والغضب، ورجل مَحِكٌ ومُماحِك ومَحْكان إذا كان لجوجاً عَسِر الخُلق، ينظر : لسان العرب، 10 /486 ((محك)).

[5] انظر: شيخ الشام جمال الدين القاسمي: 18، 28 ، 39، 48 جمال الدين القاسمي وعصره: 337 جمال الدين القاسمي: 164 – 165.

[6] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 632 وما بعدها، جمال الدين القاسمي:238 وما بعدها.

[7] انظر: شيخ الشام جمال الدين القاسمي: 82 ، جمال الدين القاسمي: 172.

وأرى من المناسب أن أَختم هذه الفقرة بأقوال ثلاثة من الباحثين في الحديث عنه وذكر صفاته وهم:

- جميل العظم(1352هـ- 1933 م) فقد قال في وصفه: ((انفرد جمال الدين بفضائل أثيرة ومناقب كثيرة وصبر لصدمات المهاجمين من متفقهة وقصاص ومخرفين، وكان له معهم مواقف حافظ فيها على سكينته ووقاره ولم يتجاوز حدود المدافعة..)) [1].

- والشيخ محمد رشيد رضا(1354 هـ - 1935م) قال فيه: ((كان تقياً ناسكاً واسع الحلم سليم القلب نزيه النفس واللسان والقلم يأخذ ما صفا ويدع ما كدر ..)) [2].

وقال- أيضاً: ((هو علامة الشام ونادرة الأيام والمجدِّد لعلوم الإسلام، محي السنة بالعلم والتعليم، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هدي السلف، والارتقاء المدني الذي يقتضيه الزمن)) [3].

- والأستاذ الرئيس محمد كرد علي (1372هـ- 1953م)، فيقول: ((كان القاسمي منذ وعى على نفسه يعمل على تهذيبها ولا يكاد يمضي عليه يوم لم يستفد منه فائدة ولم يقيِّد شاردة، فظهرت عليه مخايل النبوغ ولمَّا يبلغ العشرين ..)) [4] إلى آخر ما قيل في شأنه.

ثانياً- نشاطه العلمي وتدريسه:

وأما الأعمال والنشاطات العلمية التي قام بها الشيخ القاسمي فإنَّه قد تصدَّى للتدريس في العلوم العربية والشرعية منذ فترة مبكرة في حياته إذ لم يتجاوز سنه أربع عشرة سنة، فقام به بالإضافة إلى توليه وظيفة الإعادة في دروس والده، وبدأ بإقراء مقدِّمات العلوم بعد صلاة المغرب في جامع السنانية، وكان له درس في الفقه الشافعي، واستمر على تلك الحال حتى بلغ العشرين من العمر في عام (1303هـ- 1885م) فأُسند إليه وظيفة الإمامة في جامع ((العنابة)) بحي باب السريجة، واستمر بها حتى عام (1317هـ- 1899م) تاريخ وفاة والده فأَمَّ الناس مكانه بمحراب جامع السنانية[5] وعندما بلغ عمره ستاً وعشرين سنة بحلول عام 1309هـ-1891م اختير من قبل أعضاء مجلس إدارة الولاية- مع مجموعة من العلماء ليتولوا وظائف تدريس وإرشاد ووعظ في الأقضية السورية خلال شهر رمضان. ويظهر أن القاسمي كان من المتحمسين والمندفعين لذلك؛ لأنه كان يرى في هذا التكليف طريقاً مهماً للدعوة ونشر العلم الذي أخذ نفسه على حمله وتبليغه للناس كافة[6]،فاختار قضاء (منطقة) وادي العجم، وسافر إلى قراه منذ أول الشهر المبارك، وأخذ ينشر دروسه فيها، وألف كتاباً وصف فيه مشاهداته وأعماله سماه ((بذل الهمم في موعظة أهل وادي العجم)) [7].

وفي العام التالي اختار قضاء ((النبك)) وفعل مثل ما فعل في الأوّل، وصنَّف كتابه ((حسن السبك في الرحلة إلى قضاء النبك)) [8].

وفي السَّنتين التاليتين كان نصيبه في ((بعلبك)). ومن ثم أُلغيت هذه الوظيفة من قبل الحكومة لكثرة المتقدمين إليها. وقد استمرت هذه الوظيفة أربع سنوات، وفي السنة الأخيرة 1313هـ - 1895م وقبيل سفره إلى بعلبك وقع له حادثة سماها ((حادثة المجتهدين)) كان لها- كما يقول ولده-: ((أكبر الأثر في توجيه تفكيره

---

[1] شيخ الشام جمال الدين القاسمي: 17، وانظر: جمال الدين القاسمي: 167 - 168.

[2] المنار مج 17، ج 8 / 635. وانظر: جمال الدين القاسمي: 168.

[3] في مقدمته لكتاب: قواعد التحديث للقاسمي: 9 . وانظر: محاسن التأويل: 3/1.

[4] كما في شيخ الشام جمال الدين القاسمي: 17. وانظر: جمال الدين القاسمي: 170 - 171.

[5] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 35 وما بعد، جمال الدين القاسمي: 110.

[6] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 36، جمال الدين القاسمي: 111.

[7] مخطوط. انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 36، جمال الدين القاسمي: 112 ، 255.

[8] مفقود. انظر: المرجعين السابقين، الأول: 36 - 37 ، الثاني: 112 ، 260.

وفي طريقة التأليف ومواعظه ودروسه العامة لا بل يمكن أن تعد هذه الحادثة أعظم حادثة تتعلق بالحياة الدينية والفكرية في ذلك العصر)) [1].

وسببُ الحادثة– كما ذكر– أن الشيخ القاسمي كان يجتمع مع فريق من علماء دمشق المميزين، وكانوا يطالعون ويتدارسون ويقرؤون كتباً متنوعة، فاندسَّ بينهم بعض الحساد، وسعوا فيهم واختلقوا عليهم ما لم يكن فيهم، وأذاعوا بين الناس أخبارهم متزيدين فيها حتى سماهم النَّاس ((جمعية المجتهدين)) واتُّهم الشيخ القاسمي بأنه أسَّس مذهباً خاصاً به يسمى ((المذهب الجمالي)) ويدعو الناس والعلماء إليه؛ فقُبِض عليه سنة (1313هـ – 1895م) ثم أخلي سبيله بعد أن ردَّ التهمة عن نفسه، واستأنف جمال الدين حياته بعدئذٍ قوياً، وخرج من محنته صامداً، وبدأ مرحلة جديدة من عمره غدا فيها معروفاً ومشهوراً– كما قال: ((وبعد هذه الحادثة ارتفع بحمد الله قدرنا وعلا بفضله وستره أمرنا. أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله؛ فالحمد لله ثم الحمد لله ..)) [2].

وبعد أن خرج من المحنة معافى تطلعت نفسه إلى آفاق أُخرى من آفاق المعرفة والثقافة؛ وهي الرَّحلات والأسفار التي كان قد عَرَف بعضها في سفره إلى الأقضية والبلدان القريبة من دمشق للتدريس فيها.

ففي أواخر المحرم من عام (1321هـ – 1903م) قام برحلة إلى بيت المقدس مع جماعة من أصدقائه ومعارفه، ومرَّ في طريقه بعدة أماكن وبلدات، ومن القدس توجه إلى الخليل وبيت لحم، ثم رجع مرة أُخرى إلى القدس ثم غادرها إلى يافا وغيرها وبعد ذلك رجع إلى دمشق عن طريق بيروت[3].

ومع نهاية شهر رمضان من السنة نفسها بدأ رحلة علمية إلى مصر، فصلى صلاة العيد بجامع السنانية ثم استقلَّ القطار إلى بيروت، ومن هناك رحل مع صديقه الشَّيخ عبد الرَّزاق البيطار (1335هـ – 1916 م) عن طريق البحر إلى مصر، فوصلا إلى القاهرة بعد مرورهما ببور سعيد والمنصورة وطنطا، ونزلا في غرفة بالأزهر واستغرقت الرحلة شهراً ونصف الشهر[4].

وفي عام (1328هـ – 1910 م) زار المدينة المنورة بعد أَن تاقت نفسه لزيارة قبر النبي ﷺ، وتلهف قلبه إلى مهبط الوحي، ولكن رحلته هذه لم تطل أكثر من بضعة عشر يوما[5].

ومما يجدرُ ذكره هنا – هو أَن الرحلات التي كان يقوم بها الشيخ القاسمي كانت رحلات علمية ترفيهية اطَّلع من خلالها على كثير من الآثار في البلاد التي زارها، والتقى بأبنائها وعلمائها، فأفاد منهم وأفادوا منه، وتعرف على الجوانب الثقافية والفكرية فيها، واشترى كثيراً من الكتب النفيسة، ووقع على نفائس المخطوطات، ودوَّن ملاحظاته ومشاهداته في كل بقعة كان يمرُّ فيها[6]، ويبدو أَنه لم يكتف بما قام به من الرحلات السابقة، بل قام برحلات أُخرى داخل سورية وخارجها – كما يذكر المترجمون له – ويظهر في الوقت نفسه – أَن حساده وخصومه لم يتركوه على حاله، فقد تعرَّض لمحن أخرى، ولكنَّها أخف من سابقتها وخرج منها سالماً[7].

---

[1] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 43 وما بعد، جمال الدين القاسمي: 112.

[2] انظر: المرجعين السابقين، الأول: 69 ، الثاني: 120.

[3] انظر– للوقوف على رحلات الشيخ: جمال الدين القاسمي وعصره: 97 – 180، جمال الدين القاسمي: 131 وما بعدها.

[4] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 133 – 161، جمال الدين القاسمي: 134 – 135.

[5] انظر: المرجعين السابقين.

[6] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 99، 103 ، 124 وغيرها، جمال الدين القاسمي: 132 – 135.

[7] انظر: جمال الدين القاسمي: 136 وما بعدها.

وفي أواخر حياته أمضى بقية عمره منكباً على التدريس مداوماً على البحث والتأليف، مواظباً على التوجيه وبثِّ الدَّعوة التي اضطلع بها، وحرص على نشرها. وأما الدروس التي اشتهر بها فقد كانت في جامع السنانية إلى جانب بيته الذي أصبح مدرسة يغشاها طلابُ العلم صباحاً ومساءً، وأكثر ما كان يقرأ في حلقات الشيخ ودروسه كتبُ التفسير إلى جانب علوم أُخرى متنوعة. ولم تكن حلقات الشيخ تقتصر على علوم الشريعة فقط، وإنما كان يحثُّ طلَّابه على الأَخذ بجميع العلومِ والمعارف الدينية والدنيوية، ويعاملهم بمنتهى اللطف والأَدب، ويعدّهم أصحاباً له، ويترك لهم حرية البحث، ويفتح لهم باب المناقشة، وكثيراً ما كان يتدخل في توجيه طلابه في حياتهم الخاصة[1]. ولذلك فإنَّ مَنْ كان هذا شأنه لا بدَّ أن يترك في نفوس طلابه ومرتادي مجالسه أَثراً عميقاً، ولعل من أَشهر طلابه الذين تأثروا به وأَحبوه، وحفظوا له الوُدَّ، وكانوا لا يذكرونه إلاَّ بالخير وأسمى الألقاب – وهم كثيرون –:

– الشيخ محمد بهجة البيطار (1396 هـ – 1976 م) الذي كان ملازماً له شديد التعلق والتأثر به، وكان لا يذكره في مجالسه إلَّا بقوله: شيخنا علامة الشام، أو شيخنا القاسمي[2].

– والشيخ محمد جميل بن عمر الشطي (1379 هـ – 1959 م) مفتي الحنابلة فيما بعد– الذي أخذ عن الشيخ علوماً كثيرة، وتأَثرْ به[3].

المطلب الثالث: وفاته وآثاره العلمية، ويتناول ما يلي:

أولاً– وفاته: بقي الشيخ القاسمي حاملاً راية العلم والمعرفة، ناشراً عبق فكره النير في حلقات الدرس ومجالس العلم، مثابراً على القيام بمهامه ووظائفه إلى أن وافاه الأجل مساء السبت في الثالث والعشرين من جمادى الأولى عام(1332هـ) من الهجرة النبوية الموافق للثامن عشر من نيسان عام (1914م) من الميلاد، ودفن في مقبرة الباب الصغير بدمشق[4]، وقد رثاه جماعة من أهل العلم والأدب وفي مقدمتهم تلاميذه، ومن ذلك:

– ما قاله أخوه صلاح الدين بن محمد سعيد القاسمي(1334هـ – 1916م) في قصيدة سماها ((الدمعة اليتيمة)) ومطلعها[5]:

ما لجو العلوم داجي الذيولِ أتُرى مال بدره للأُفولِ
أم هوى نجمه وغار ضياه ودهاه الردى بليل طويل
فغدا الناس تائهين حيارى عن طريق بهديهم موصول

إلى آخر ما قال.

– وما قاله الشيخ محمد جميل بن عمر الشَّطي في قصيدةٍ مطلعها[6]:

لله فاجعة الإمام القاسمي ما كان أسوأ وقعها في العالم

---

[1] انظر: شيخ الشام جمال الدين القاسمي: 37 ، 80 ، 88 ، جمال الدين القاسمي: 208 – 211.

[2] انظر: الفضل المبين: 21، جمال الدين القاسمي: 215. وانظر ترجمة الشيخ البيطار: تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري: 2 / 918 –925 ، معجم المؤلفين المعاصرين: 2 / 553، محمد بهجة البيطار، حياته وآثاره، عدنان الخطيب دمشق 1976.

[3] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 78، جمال الدين القاسمي: 217 وللتعرف على ترجمة الشيخ الشطي انظر: معجم المؤلفين: 9 / 161، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري: 2 / 704 – 709. معجم المؤلفين المعاصرين: 2 / 564.

[4] شيخ الشام جمال الدين القاسمي: 20، 95، جمال الدين القاسمي: 148.

[5] انظر: الدكتور صلاح الدين القاسمي، آثاره: 291، نقلاً عن: جمال الدين القاسمي: 150.

[6] انظر: شيخ الشام جمال الدين القاسمي: 96، جمال الدين القاسمي: 153.

رزء غدا في الدين أكبر ثلمة وأتى لصرح العلم أعظم هادم
هو شيخنا وجمالنا وحبيبنا العالم ابن العالم ابن العالم

إلى آخر ما قال.وما ذكره الشيخ محمد بهجة البيطار في قصيدة له مطلعها[1]:

ألا في سبيل الله ما نال شيخنا بدعوته وانتابه من متاعب
وأعجب من كل العجيب خصومه أفاعليهم تقضي بكل العجائب
يسبون من للدين قد جاء ناصراً ويرمونه حمقاً بكل المثالب

إلى آخر ما قال.

ثانياً– آثاره العلمية:

كان الشيخ القاسمي من المكثرين في التأليف والتصنيف– كما مرَّ– ومن الذين يدعون ويحثون أصحاب الفكر النيرِّ إلى التأليف، فهو يرى أن الكتاب يؤثر في المجتمع تأثيراً أعظم من تأثير أي أسلوب آخر كالدعوة والخطابة؛ ولذلك فقد تصدى للتأليف والتصنيف وكان له من العمر (16) ست عشرة سنة واستثمر كل لحظة من حياته في سبيل ذلك[2].

وكان من ثمرة ذلك الحرص والاهتمام بالتأليف والتصنيف– العدد الكبير من المؤلفات في العلوم المختلفة والفنون المتنوعة، فقد ألف في التفسير والحديث والفقه والأدب وغيرها، ونشر بحوثاً كثيرة في المجلات والصحف أودع فيها عصارة فكره ولباب دعوته ووسطية منهجه، وقد ذكر صاحب ((الأعلام)) [3] أنَّه اطَّلع على (72) اثنين وسبعين مصنفاً للشيخ القاسمي وذكر الشيخ محمد رشيد رضا (79) تسعة وسبعين مصنفاً في ترجمته التي كتبها في مجلة ((المنار)) [4] وأمَّا ولده ظافر فقد أحصى من كتبه (87) سبعة وثمانين كتاباً[5]. وقد أفاد الدكتور نزار أباظة في كتابه ((جمال الدين القاسمي أحد علماء الإصلاح الحديث في الشام)) [6] من سابقيه الذين ترجموا للشيخ وذكروا مؤلفاته، وبذل مجهوداً فائقاً في التعرف على آثاره العلمية، فعدَّله (113) مائة وثلاثة عشر مؤلفاً، ورتبها على حروف المعجم، وعلَّق على كل منها بما يعطي فكرة مختصرة عنه، إن كان مخطوطاً وضع أمامه حرف (خ)، وإن كان مطبوعاً ذكر مكان الطبع والسنة والمطبعة.

ولا شك أن هذه المؤلفات قد لقيت قبولاً واستحساناً لدى العلماء وطلاب العلم، وأرباب الثقافة، وأثارت إعجابهم لما فيها من نفع كبير وفكر نير متقد، فوجهوا أنظار الطلاب إليها، وأشادوا بفضلها وتأثيرها على قارئيها، فقال أمير البيان شكيب بن حمود أرسلان (1366هـ – 1946م) وهو من أصدقاء القاسمي المخلصين: ((واني لأوصي جميع الناشئة الإسلامية التي تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إ ليه ضمائرها وتنعقد عليه خناصرها أن لا تقدم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي الذي قسم الله له من اكتناه أسرار الشرع ما لم يقسمه إلا لكبار الأئمة وأحبار الأمة، والله تعالى ينفع المسلمين بآثاره، ويهديهم في ظلمات هذه الحياة بزاخر أنواره)) [7]، وكان من المعجبين بكتب الشيخ وأعماله العلمية– الأستاذ الرئيس محمد كرد علي الذي يرى في مؤلفاته الجودة والعمق، فيقول ((أمَّا أنا فلا أحيل المعترض إلا إلى كتب الشيخ وقراءة

---

[1] انظر: المرجعين السابقين، الأول: 100 ، الثاني 155.

[2] انظر: جمال الدين القاسي وعصره: 91 ، 485 ، جمال الدين القاسمي: 237.

[3] انظر: خير الدين الزركلي: 2 / 135 .

[4] مجلة المنار مج 17، 8 / 629 وما بعدها.

[5] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 632 – 688.

[6] انظر: 250 – 281 .

[7] كما في: قواعد التحديث للقاسمي في مقدمته للكتاب: 8 . وانظر: جمال الدين القاسمي: 240.

بعض ما طبع منها وتحكيم العقل والإنصاف وأنا الضامن بأنَّه لا يلبث أن يساهمني قولي، ويوقن بأنَّ المرحوم جود تآليفه التي تنم على عقله وعلمه أكثر مما جوَّدها كثير من المؤلفين بعد عصر السيوطي ممن شهد لهم بالإجادة ..)) [1].

ويرى الأستاذ عاصم محمد بهجة البيطار نجل أشهر تلاميذه– في كتب الشيخ من الجدة والابتكار والثقافة الموسوعية– ما رآه غيره من الباحثين، فيقول: ((إن النظر المتأني فيما ترك علامة الشام القاسمي من آثار وأقوال في مختلف وجوه العلم يدل على أن ثقافته كانت شيئاً فريداً بين معاصريه، فقد كانت ثقافة موسوعية لم تقف عند حدود علوم الشريعة واللغة والاجتماع، بل عنيت بما استحدثه العصر من مكتشفات ومخترعات وما وصل إليه العلم من آراء ونظريات، واستخدم ذلك كله في خدمة الدين وإقامة المجتمع الإسلامي على أفضل الأسس والقواعد التي لا تفقد صبغتها الإسلامية، ولا تتنكر لتقدم سليم أو معطيات علمية نافعة...)) [2] إلى آخر ما ذكره.

وبعد هذا العرض لأقوال بعض الباحثين في مؤلفات الشيخ القاسمي وإسهاماته الفكرية لابد من الإشارة إلى أن بعض مصنفات الشيخ القاسمي قيل عنها: إنها لا تعدو كونها اختصاراً لكتاب أو تعليقاً على حاشية أو شرحاً لرسالة أو نقولاً حرفية من هنا وهناك. وللجواب عن ذلك يمكن القول: وما العيب في ذلك إذا اتسمت الشروح والتعليقات والنقول الحرفية بالدقة في التحليل وحسن الاختيار في النقل والفائدة العلمية! وسأقتصر على ذكر أهم هذه المؤلفات وأشهرها مرتباً إياها على حروف المعجم مع تعريف موجز بكل منها انسجاماً مع طبيعة البحث وغايته، وهي[3]:

– آداب العالم والمتعلم والمفتي والمستفتي، جرَّد من مقدمة شرح المهذَّب للإمام محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي (676 هـ) وهو مخطوط[4].

– إرشاد الخلق إلى العمل بخبر البرق: حقق فيه موضوع وجوب الأخذ بالأخبار البرقية فيما يتعلق بالعبادات كإثبات شهر رمضان والأعياد وهو مطبوع[5].

– إصلاح المساجد من البدع والعوائد، تناول فيها أكثر البدع الشائعة في المساجد، وحدد تاريخ تسربها، ودعا إلى الامتناع عنها، وهو مطبوع [6].

– تاريخ الجهمية والمعتزلة، تناول فيه تاريخ الفرقتين وأهم آرائهم وأقوالهم وهو مطبوع[7].

– تعطير المشام في مآثر دمشق الشام: تحدث فيه عن مآثر دمشق من خلال أربعة أجزاء كبار معتمداً – في معلوماته التي أوردها – على أكثر من خمسين كتاباً وهو لا يزال مخطوطاً[8].

---

[1] انظر: جمال الدين القاسمي: 247.

[2] الفضل المبين: 21 ، وانظر: جمال الدين القاسمي: 248.

[3] للوقوف على مؤلفات القاسمي انظر: الأعلام: 135/2، معجم المؤلفين: 158/3 جمال الدين القاسمي وعصره: 632–688، شيخ الشام جمال الدين القاسمي: 98 – 99، جمال الدين القاسمي: 237 – 281 ، معجم المؤلفين المعاصرين: 2 / 560– 564.

[4] كما في جمال الدين القاسمي: 250.

[5] في دمشق مطبعة المقتبس 1329 هـ ، انظر: جمال الدين القاسمي: 252.

[6] في القاهرة المكتبة السلفية 1341 هـ وفي بيروت المكتب الإسلامي 1976. انظر: جمال الدين القاسمي: 253، معجم المؤلفين المعاصرين: 2 /563.

[7] في القاهرة، مطبعة المنار 1331هـ ، وفي بيروت، مؤسسة الرسالة 1985م.
انظر : جمال الدين القاسمي: 256.

[8] انظر:جمال الدين القاسمي: 256 – 257، معجم المؤلفين المعاصرين 1 / 20 ، 2 / 561.

– دلائل التوحيد، ذكر فيه أَدلة التوحيد وبراهين النبوَّة ومعجزات القرآن الكريم وإعجازه، وقَد أَشار إلى ذَلك في مقدمة الكتاب وهو مطبوع[1].

– الشاي والقهوة والدخان، ذكر فيه ما يتعلق بأسماء هذه المواد وصفاتها النباتية واجتنائها، وما قيل فيها من الشعر ومضارها وأَحكامها الشرعية والكتاب مطبوع[2].

– قاموس الصّناعات الشامية: وفيه وصف لـ ((437)) حرفة عرفتها دمشق في جزءين، بدأ تأليفه والده محمد سعيد القاسمي بعنوان: ((بدائع الغرف في الصناعات والحرف)) ورتبه على حروف المعجم، ووقف فيه عند حرف السين، فأكمله والده جمال الدين وزوج ابنته خليل العظم، والشيخ جمال الدين هو صاحب الفكرة، والكتاب مطبوع[3].

– قواعد التَّحديث من فنون ومصطلح الحديث، ويعدُّ من أُمهات مؤلفاته المشهورة فقد لخصه من عدة كتب معتمدة، وطبع عدة طبعات محققة[4].

– ما قالَه الأطباء والمشاهير في علاج البواسير مخطوط، رسالة أَودع فيها ثقافته الطبية في هذا المجال، وذُكِر أَن عميد كلية الطب في دمشق (عزة مريدن) آنذاك أثنى عليها[5].

– محاسن التأويل ((تفسير القاسمي)) وهو موضوع البحث.

– مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن، ذكر فيه معلومات قيمة جمعها من مصادر كثيرة، وهو مطبوع[6].

– موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، اختصر فيه كتاب الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (505 هـ) ((إحياء علوم الدين)) في جزءين باقتراح الشيخ محمد عبده (1323هـ – 1905م) الذي رأى أنه من أحسن الكتب، وطبع الكتاب عدة طبعات محققة[7]، وقرر تدريسه في عدد من المدارس والكليات الشرعية في العالم الإسلامي.

– ميزان الجرح والتعديل، فرَّق فيه بين الاجتهاد والرأي، وبين التكفير والتفسيق وما يتعلق بهما، وهو مطبوع[8].

إلى غير ذلك من المؤلفات والمصنفات.

---

[1] في دمشق مطبعة المقتبس 1326 هـ . وفي القاهرة، إدارة الطباعة الخيرية 1929 م وفي بيروت ، دار النفائس 1991 م. انظر : جمال الدين القاسمي: 260 – 261.

[2] في دمشق 1322هـ. انظر: جمال الدين القاسمي: 265.

[3] حققه وقدم له ابنه ظافر القاسمي في لاهاي ، هولندا، باريس موتون 1380 هـ ثم في دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر 1408 هـ، 1988 م. انظر: معجم المؤلفين المعاصرين 2 /563، جمال الدين القاسمي: 272.

[4] وقف على طبعه وعلق عليه الشيخ محمد بهجة البيطار وطبع في دمشق، مكتبة النشر العربي1353 هـ وفي القاهرة دار إحياء الكتب العربية 1380هـ 1961 م وغيرهما. انظر: معجم المؤلفين المعاصرين:563/2، وجمال الدين القاسمي: 272.

[5] انظر: جمال الدين القاسمي: 274.

[6] في دمشق، مطبعة المقتبس 1910م، انظر: جمال الدين القاسمي: 277.

[7] منها طبعة القاهرة، مطبعة السعادة 1923م بتحقيق محي الدين صابر الكردي، وفي بيروت دار النفائس 1980 بتحقيق الأستاذ عاصم البيطار. انظر: جمالد الدين القاسمي: 279.

[8] في القاهرة، مطبعة المنار 1330هـ ، انظر: جمال الدين القاسمي: 280.

المبحث الثاني: التعريف بتفسيره ((محاسن التأويل)) ومنهجه فيه

يتناول المبحث الحديث عن تفسير القاسمي ومنهجه فيه، والجوانب التي تميَّز بها من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأوَّل: حجمه وتاريخ تأليفه وما جاء في مقدمته:

يعد تفسير الشيخ جمال الدين القاسمي المسمى ((محاسن التأويل)) الذي جاء في سبعة عشر جزءاً[1]– من أشهر المصنفات التي قام بتأليفها، وهو موسوعة علمية تفسيرية جمعت كثيراً من أنواع العلوم الدينية في أسلوب شائق وترتيب فائق، واشتملت على بحوث مطولة في التَّوحيد والفقه والحديث واللغة وغيرها، وضمت بين جنباتها نقولاً كثيرة وطويلة من مختلف المصنفات العلمية العقدية والتفسيرية والفقهية والحديثية وغيرها. وقد أشار الشيخ القاسمي إلى تاريخ تأليفه، فقال في مقدمته– بعد أن ذكر رغبته في المشاركة في علم التفسير والكتابة فيه–: ((وكان شروعي في هذه النية الحميدة بعد استخارته– تعالى– أياماً عديدة في العشر الأول من شوال في الحول السادس عشر بعد الثلاثمائة وألف..)) [2] وأتمه في رمضان عام 1327هـ وخصص لمراجعته موعداً ليلتين في الأسبوع حتى أنجزه عام 1329هـ[3] وهو يبدأ تفسيره بخطبة بليغة يشيد فيها بالعلم عموماً، وبعلوم الشريعة خصوصاً، ويبين أن العلوم الشرعية من أشرف العلوم وأنفعها، ثم يختار علم التفسير من بينها فيجعلها أعلاها شأناً وأقواها برهاناً وأوثقها بنياناً وأوضحها تبياناً؛ لأنه– كما يرى– مأخذها وأساسها، بل هو– كما وصف به– رئيسها ورأسها، ويشير – بعد ذلك– إلى رغبته وهمته في تحصيل هذا العلم وانكبابه على النظر فيه وتصفحه لما وقع في يده من مصادره، ورأيه فيما قام به المفسرون لكتاب الله، ورغبته في أن يكون واحداً منهم منخرطاً في سلكهم– بعد أن صرف شطراً من عمره في الكشف عن حقائقه، ووقف على الفحص عن دقائقه قدراً من دهره، ثم يومئ إلى ما عزم عليه من الدخول في هذا المعترك العلمي والمنهج الذي سيسير عليه بإيجاز، فيقول: ((.. وبعد أن صرفت في الكشف عن حقائقه شطراً من عمري، ووقفت على الفحص عن دقائقه قدراً من دهري، أردت أن أنخرط في سلك مفسريه الأكابر قبل أن تبلى السرائر وتفنى العناصر، وأكون بخدمته موسوماً وفي حملته منظوماً، فشحذت كليل العزم، وأيقظت نائم الهم، واستخرت الله– تعالى– في تقرير قواعده وتفسير مقاصده في كتاب اسمه بعون الله الجليل ((محاسن التأويل..)) [4].

ويشير– بعد ذلك– إلى ما يودعه في هذا الكتاب من الفوائد العلمية والفرائد الدقيقة والتحقيقات الرائعة ملتقطاً بعضها من تفاسير السابقين عليه، ومستنبطاً بعضها الآخر مما يقوده إليه الدليل، فيقول: ((.. أودعه ما صفا من التَّحقيقات، وأوشحه بمباحث هي المهمات، وأُوضح فيه خزائن الأسرار، وأنقد فيه نتائج الأفكار، وأسوق إليه فوائد التقطتها من تفاسير السلف الغابر، وفرائد عثرت عليها في غضون الدفاتر، وزوائد استنبطتها بفكري

---

[1] مطبوع ومحقق في مصر 1376 – 1380هـ وقد وقف على طبعه وتصحيحه ورقمه وخرَّج آياته وأحاديثه، وعلق عليه الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي في دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، ثم اعتنى به هشام سمير البخاري وطبع في: بيروت ، دار إحياء التراث العربي 1422هـ.

انظر: لمحات في المكتبة والبحث والمصادر، د. عجاج الخطيب: 130، معجم المؤلفين المعاصرين: 2 / 563.

[2] محاسن التأويل، مقدمة: 1 / 6.

[3] انظر: جمال الدين القاسمي وعصره: 684، وجمال الدين القاسمي: 276.

[4] محاسن التأويل، مقدمة: 1 / 5.

القاصر مما قادني إليه الدليل وقوي اعتمادي عليه. وسيحمد السابح في لججه والسانح في حججه ما أودعته من نفائسه الغريبة البرهان، وأوردته من أحاديثه الصحاح والحسان وبدائعه الباهرة للأذهان، فإنها لباب اللباب ومهتدي أولي الألباب. ولم أُطل ذيول الأبحاث بغرائب التدقيقات، بل اخترت حسن الإيجاز في حل المشكلات، اللهمَّ إلا إذا قابلتْ فرسانَ مضمار الحق جولةُ الباطلات، فهنالك تصوَّبُ أسنة البراهين نحو نحور الشبهات..))[1].

والجزء الأَوَّل من التفسير خاص بمقدَّمة مشتملة على قواعد التَّفسير ليكون هذا الجزء مفتاحاً للتفسير– كما يقول في المقدمة– بعد أن ذكر عزمه على تأليفه وعمله فيه: ((.. وقد حليت طليعته بتمهيد خطير في مصطلح التفسير وهي قواعد فائقة وفوائد شائقة جعلتها مفتاحاً لمغلق بابه، ومسلكاً لتسهيل خوض عبابه، لتعين المفسر على حقائقه، وتطلعه على بعض أسراره ودقائقه ..)) وتتعلَّق هذه القواعد بأمهات مآخذ التفسير ومعرفة صحيحه من سقيمه، وأَصح التفاسير عند الاختلاف، ونوعية الاختلاف الموجود عند السَّلف، وأَهمية أسباب النزول في معرفة المراد من كلامه سبحانه وتعالى – ، والناسخ والمنسوخ وبعض أَنواع القراءات وقصص الأَنبياء والاستشهاد بالإسرائيليات وبعض عادات القرآن، ومن نزل فيهم القرآن وأميتهم وغير ذلك، وقد نقل معلومات كثيرة متعلقة بهذه المسائل التي أَوردها في مقدمته من مراجع علمية كثيرة ومتنوعة.

ويحسن بي أَن أشير إلى مضمون كلٍ منها بإيجاز شديد للوقوف على أَهميتها وضرورتها للمفسِّر، وهي إحدى عشرة قاعدة:

1 – **قاعدة في أُمَّهات مآخذ التفسير**، يذكر فيها أَن للناظر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة، أُمَّهاتها أَربعة، وهي: النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، والأَخذ بقول الصَّحابي، والأخذ بمطلق اللغة، و التفسير بالمقتضى من معنى الكلام، والمقتضب من قوة الشَّرع مشيراً إلى ما قيل في شأن كل منها، ثم يستعرض أقوال العلماء في التفسير بالرأي من المجيزين والمانعين، وينتهي إلى أَنه لا بدَّ من النظر وإعمال الفكر فيما لم يرد فيه دليل[2].

ومن الملاحظ أن الشيخ القاسمي لم يشر في هذه القاعدةإلى تفسير القرآن بالقرآن وقد استدرك عليه بعض من كتب عنه قائلاً:

((وكان عليه أَن يذكر خامسة ويعتبرها الأُولى، وهي القرآن نفسه؛ فمن المعلوم أَن القرآن الكريم يفسِّر بعضه بعضاً، وقد أَخذ كثير من المفسّرين بهذا الاعتبار ففسَّروا كتاب الله بكتاب الله وهو واحد منهم فكثير ما نراه يفسِّر الآية بأختها أو بأخواتها ...))[3]. ويظهر من صنيع الشيخ القاسمي أَنه يطلق على تفسير القرآن بالقرآن مصطلحاً آخر، وهو التفسير بالأَشباه والنظائر[4].

---

[1] محاسن التاويل:5/1.

[2] انظر: محاسن التأويل: 1 / 7 – 14. وينقل مضمون هذه القاعدة من مجموعة كتب: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: 1 /5، البرهان في علوم القرآن للزركشي: 2 / 156 وما بعدها، مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (808 هـ): مج2/ 391 – 392.

[3] وهو الدكتور محمد بكر إسماعيل في كتاب القاسمي ومنهجه في التفسير: 22 – 23.

[4] انظر: جهود علماء الشام في تفسير القرآن الكريم منذ القرن الرابع عشر الهجري: 24

2 – قاعدة في معرفة صحيح التفسير وأَصح التفاسير عند الاختلاف:

ذكر فيها مراتب المفسرين من الصحابة والتابعين ومشاهيرهم في علم التفسير وأَشار إلى أن تفسير ابن عباس متى صحَّ الإسناد إليه – من أَصحِّ التفاسير وذكر سبب ذلك[1].

3– قاعدة في أن غالب ما صحَّ عن السلف من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد. وأهم ما ذكره تحت هذه القاعدة[2]:

– أن النبي ﷺ بيَّن لأصحابه معاني القرآن كما بيَّن لهم ألفاظه، وذكر الأدلة على ذلك.

– أن النزاع بين الصحابة في التفسير كان قليلاً جداً، وهو إن كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم، وأن من التابعين مَنْ تلقى جميع التفسير عن الصحابة مع الاعتماد على الاستنباط والاستدلال.

– أن الخلاف بين السَّلف في التفسير قليل، وغالب ما يصحُّ عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وأشار إلى أسباب الخلاف مع ذكر بعض الأمثلة للتدليل على ذلك.

– أن الاختلاف في التفسير على نوعين، منه ما مستنده النقل، ومنه ما يعلم بغير ذلك، ثم أوضح المراد بكل من النوعين وطرق الوصول إليهما وأشار إلى بعض الأخطاء التي يقع فيها المفسِّرون وسبب ذلك مع ذكر بعض النماذج من كتب التفسير[3].

4 – قاعدة في معرفة سبب النزول[4]:

أشار فيها إلى بيان أهمية معرفة أسباب النزول في فهم الآية وفوائدها؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، ثم ذكر نماذج من الآيات التي كان لأسباب النزول أثر كبير في فهمها.

– الجهل بأسباب النزول موقع في الشبه والإشكالات، مورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف، وذلك مظنَّة وقوع النزاع. ثم يوضحِّ هذا المعنى من خلال أمثلة ونماذج.

– الوقوف عند العموم والخصوص بين لفظ الشارع وسببه، والتعبير عن سبب النزول وصيغه الصريحة التي تعد نصاً في السببية لا تحتمل غيرها، والصيغ المحتملة التي لا تعد نصاً في ذلك، وإنما تحتمل السببية، وتحتمل غيرها إلى آخر ما ذكر في هذا المجال[5].

---

[1] انظر: محاسن التأويل: 1 /14 – 17.نقل مضمون القاعدة نقلاً حرفياً أو شبه حرفي من كتابين هما:

– مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية تقي أحمد بن عبد الحليم (728هـ): 61 وما بعدها في الحديث عن أَعلم الناس بالتفسير.

– إيثار الحق على الخلق لأبي عبد الله محمد بن المرتضى اليماني المشهور بابن الوزير (840هـ) : 146– 148.

(فصل: في الإرشاد إلى طريق المعرفة لصحيح التفسير).

[2] انظر: محاسن التأويل: 1 / 17 – 22.

[3] نقل المعلومات التي ذكرها نقلاً حرفياً أو بالمضمون عن: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية: 35 وما بعد.

[4] انظر: محاسن التأويل: 1 / 17 – 22.

[5] المراجع التي نقل عنها: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية: 47 وما بعدها، الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحق الشاطبي إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي (790 هـ): 3 /347 – 350، الفوز الكبير في أصول التفسير للإمام ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي(1176هـ) مع شرح العون الكبير: 158 وما بعدها.

5- قاعدة في النَّاسخ والمنسوخ[1]:

قرَّر فيها أنَّ النسخ في الشرائع جائز وموافق للحكمة وواقع، وأنَّ شرع موسى عليه السلام نسخ بعض الأحكام التي كان عليها إبراهيم عليه السلام، وشرع عيسى عليه السلام نسخ بعض أحكام التوراة، وشريعة الإسلام نسخت جميع الشرائع السابقة؛ لأن الأحكام العملية التي تقبل النسخ إنما تشرع لمصلحة البشر، والمصلحة تختلف باختلاف الزمان؛ فالحكيم العليم يشرع لكل زمن ما يناسبه، ثم تناول بعض المسائل الأخرى التي لها علاقة بالنسخ مثل مفهوم النسخ عند المتقدمين والمتأخرين، ونسخ القرآن بالقرآن واستعرض بعض الأمثلة والنماذج من الآيات القرآنية التي قيل عنها: إنها من قبيل الناسخ أو المنسوخ.. إلى غير ذلك[2].

6- قاعدة في القراءة الشاذة والمدرج[3]:

أوضح فيها معنى القراءة الشاذة، فذكر أنَّ المقصد من القراءة الشاذة تفسير القراءة المشهورة وتبيين معانيها، ثم ذكر نماذج منها، وأشار إلى أن من القراءات ما يشبه من أنواع الحديث المدرج، وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير، وذكر نماذج منها، ونقل عن السابقين عليه- أنه لا يلزم الاقتصار على قراءة سبعة من القراء دون غيرهم، وأن من يقول إن بعض الصحابة كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب وساء[4].

7- قاعدة في قصص الأنبياء والاستشهاد بالاسرائيليات[5]:

وقد أطال الكلام في الحديث عن هذه القاعدة الجليلة لأهميتها، وأهم المسائل التي تناولها فيها نقلاً عن كتب السابقين عليه ما يلي:

- بيان أهمية معرفة القصص القرآني وتأثيرها على المخاطبين في ترسيخ الأغراض والأهداف التي سيقت من أجلها.

- بيان المنهج في رواية الإسرائيليات والدفاع عن علماء السلف الذين ساقوا في كتبهم الروايات الإسرائيلية مبيناً أن الهدف والقصد منها الاعتبار بالوقائع التي أحدثها- الله تعالى- لمن سلف للسير على منهج من أطاع فأُثنى عليه وفاز، والتنكب عن طريق من عصى فحقت عليه كلمة العذاب وهلك.

- بيان ما نقل من أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وتوضيح المراد بالظاهر والباطن، وذكر نماذج من الآيات وتفسيرها على ضوء ما يورده من المعلومات المتعلقة بذلك.. إلى آخر ما قال[6].

---

(1) انظر: محاسن التأويل: 1 / 32 – 38.

(2) من أهم المراجع التي نقلها عنها: الموافقات للشاطبي: 3/108-114، الفوز الكبير في أصول التفسير بشرح العون الكبير- للدهلوي: 134 وما بعد .

(3) انظر: محاسن التأويل: 1 / 38 – 39 .

(4) نقل عن: الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي(911هـ): 3/216 ، 225 ، 227 ، 228. والشيخ القاسمي نقل كلام أبي عبيد القاسم بن سلام (224هـ) في بيان المقصود من القراءة الشاذة، وكلام ابن الجزري (833هـ) في بعض المسائل، وكلام القرَّاب (إسماعيل بن إبراهيم(414هـ) من كتاب الإتقان.

(5) انظر: محاسن التأويل: 1 / 40 – 62.

(6) وأهم المراجع التي نقل عنها: تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي(774هـ) : 1/5 وما بعدها. الموافقات للإمام الشاطبي: 3 / 382 فما بعدها، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي(885هـ) : 1 /98 – 102.

8- قاعدة في أنَّ كلَّ معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي فليس من علوم القرآن في شيء[1]: أوضح فيها أهمية اللغة العربية في تفسير القرآن؛ لآنَّ القرآن الكريم نزل بلغة العرب وعلى أَساليب بلاغتهم فلا ينبغي الخروج على ذلك، وساق بعض النماذج من الانحرافات في تفسير بعض الآيات نتيجة الجهل أَو الانتصار لِلمذهب والمعتقد ثم انتقل إلى الحديث عن شروط قبول التَّفسير بالباطن، وفرَّق بين التفسير الباطني الإشاري الذي توفرت فيه شروط القبول وبين ما فسَّر به الباطنية مبيناً أَنَّه - تفسير الباطنية – ليس من علم الباطن، كما أَنَّه ليس من علم الظاهر، وأَسهب في الحديث عن ذلك، وذكر نماذج عديدة من التفسيرات وحكم عليها بموجب ما ذكره من القواعد والأصول في صفحات طويلة[2].

9 – قاعدة في أَن الشريعة أمية وأَنه لا بد في فهمها من اتباع معهود الأميين وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم[3]:

ذكر فيها أَن هذه الشريعة المباركة أُمية لأن أهلها كذلك فهو أجرى على اعتبار المصالح، واستعرض الأدلة على ذلك مبيناً أنه لابد من فهم الآيات على ما يقتضيه معهودهم، وأشار إلى كثير من الأمور التي لها علاقة بموضوع القاعدة من قريب أو بعيد، من ذلك:

- تعرض القرآن الكريم للعلوم التي برع فيها العرب كعلم النجوم وما يختص بها من الاهتداء في البر والبحر واختلاف الأزمان باختلاف سيرها، وعلوم الأنواء وأوقات نزول الأمطار وإنشاء السحاب وهبوب الرياح، وعلم التاريخ وأخبار الأمم الماضية إلى غير ذلك مما كان معروفاً عند العرب.

- مسألة إضافة كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف- إلى القرآن الكريم، والقول الفصل في ذلك.

- بيان أن الصحابة حجة إذا أجمعوا لمعرفتهم باللسان العربي، ولأن ألسنتهم لم تتغير ولم تنزل عن رتبتها العليا، ولمباشرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة وغير ذلك.

- بيان أن كل حكاية في القرآن لم يقع لها رد فهي صحيحة، وذكر نماذج من ذلك.

- بيان أن قصص القرآن الكريم لا يراد بها سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص، وإنما هي عبرة للناس كما قال تعالى في سورة هود بعد ما ذكر موجزاً من سيرة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم: ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِين** ﴾ [هود: 12].

ولذلك لا تذكر الوقائع والحوادث بالترتيب ولا تستقصى؛ فيذكر منها كل شيء، ثم أشار إلى بعض الفوائد والعبر التي تؤخذ منها[4].

---

(1) انظر: محاسن التأويل: 1 / 63 – 79.

(2) المرجع الأساسي الذي نقل عنه حرفياً – : الموافقات للإمام الشاطبي: 3 / 391 – 406.

(3) انظر: محاسن التأويل: 1 /80 – 115.

(4) نقل المعلومات التي ذكرها عن: الموافقات للشاطبي: 69/2 وما بعدها ، 3 / 353 وما بعدها.

10- قاعدة الترغيب والترهيب في التنزيل الكريم[1]:

وأهم المسائل التي ساقها في شرحه لهذه القاعدة:

- ((إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه وبالعكس وكذلك الترجية مع التخويف وما يرجع إلى هذا المعنى مثله، ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار وبالعكس؛ لأن في ذكر أهل الجنة بأعمالهم ترجية، وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفاً فهو راجع إلى الترجية والتخويف، ويدل على هذه الجملة عرض الآيات على النظر..)) ثم حلَّل عدداً من الآيات القرآنية للتدليل على ما ذكره[2].

- وقد يغلب أحد الطرفين بحسب المواطن ومقتضيات الأحوال، فيرد التخويف ويتسع مجاله وذلك في مواطن الاغترار لكنه لا يخلو من الترجية، وترد الترجية أيضاً ويتسع مجالها وذلك في مواطن القنوط ومظنته، ثم استعرض عدداً من الشواهد القرآنية على ذلك، وأجاب عن القول القائل: إن هذا لا يطرد، فقد ينفرد أحد الأمرين فلا يؤتى معه الآخر.. بما يشفي العليل ويروي الغليل من خلال الآيات القرآنية[3].

- وبناءً على ما سبق فعلى العباد أن يكونوا دائرين بين الخوف والرجاء؛ لأن حقيقة الإيمان دائرة بينهما، وأيدَّ تصوره هذا بجملة من الآيات القرآنية التي تدل على ما ذهب إليه[4].

وبعد أن أنهى حديثه عن الترغيب والترهيب أتبع ذلك بجملة من الفصول التي لها علاقة بمنهجية القرآن في عرض الأحكام، وما يتضمنه من القضايا، وبأقسام العلوم المضافة إلى القرآن، وبالعلاقة بين السور المدنية والمكية من حيث الفهم، وبمدخل السنة في تبيين القرآن، وبالاعتدال في التفسير والضابط المعوَّل عليه في مأخذ الفهم، وبما جاء من إعمال الرأي في القرآن الكريم وفي أن الأدلة الشرعية لا تنافي قضايا العقول[5]، وختم الفصول السابقة بفصل طويل وعنْونَ له ((في أن رتبة السنة التأخر عن الكتاب، وأنها تفصيل مجمله وقاضية عليه[6]))، وكلها فصول مهمة يحتاج إليها كل من أراد أن يفهم القرآن فهماً صحيحاً، وهو في كلِّ ما أورده في شرحه لهذه القاعدة لم يخرج عما ذكره الإمام أبو إسحاق الشاطبي إبراهيم بن موسى(790 هـ) في كتابه ((الموافقات)).

11- قاعدة في أنَّه هل في القرآن مجاز أم لا [7]؟

أجاب عن هذا السؤال بما ذكره ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم (728هـ) في كتاب ((الإيمان)) [8] فنقله بطوله، وهو يرى – باختصار– أنه لا مجاز في القرآن، وأن تقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز تقسيم محدث لم ينطق

---

(1) انظر: محاسن التأويل: 1 / 116 – 221.

(2) انظر: الموافقات للشاطبي: 3 / 358 – 360.

(3) انظر: الموافقات: 3 / 360 – 365.

(4) انظر: المرجع السابق: 3 / 365 – 366.

(5) انظر: المرجع السابق: 3 / 366 وما بعدها.

(6) انظر: المرجع السابق: 4 / 7 – 58 .

(7) انظر: محاسن التأويل: 1 / 222 – 249.

(8) لم أعثر على الكتاب.

به السلف والخلف فيه على قولين، وليس النزاع فيه لفظياً، بل يقال: نفس هذا التقسيم باطل، وكل ما يذكرونه من الفروق يبين أنها باطلة.. إلى آخر ما ذكر في هذا المجال، وبعد الانتهاء من هذا الفصل الطويل أتبعه بفصل آخر وثيق الصلة به مضمونه الجواب عن سؤال آخر هو:

أنه هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة ؟ أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة ؟[1] معتمداً على نفس المرجع السابق فذكر- بعد أن أشار إلى الخلاف في ذلك: ((والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها، ولكنها استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها كقوله تعالى: ﴿ وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ [آل عمران: 97] فذكر حجاً خاصاً وهو حج البيت، وكذلك قوله: ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ.. ﴾ [البقرة: 158] فلم يكن لفظ الحج متناولاً لكل قصد بل لقصد مخصوص دلَّ عليه اللفظ نفسه من غير تغيير اللغة...)) إلى آخر ما قال.

ثم تكلم القاسمي عن مسائل أخرى عديدة وهي بإيجاز:

- ذكر مجمل مقاصد التنزيل الكريم وضروب التفسير: أشار فيها إلى أنواع مقاصد القرآن وما يتعلق بكل نوع، وأطال الوقوف عند الحديث عن سر التكرير في القرآن، وأحكام وضروب التفسير[2].

- ما اقتضته الحكمة الربانية في التنزيل الكريم: ذكر فيها أن المقصود من نزول القرآن تهذيب طوائف الناس من العرب والعجم والحضر والبدو، واستعرض أساليب الخطاب التي استخدمها القرآن في تحقيق ذلك.

- ذكر بديع أسلوب القرآن الكريم: استعرض فيها الأساليب القرآنية وما فيها من البلاغة والدقة في تأدية أغراضها بإسهاب[3].

- الرخصة بقراءة القرآن على سبعة أحرف في العهد النبوي، وبيان معنى الأحرف السبعة، واقتصار الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان ﷺ على الحرف المتواتر، وسبب الاقتصار على قراءات الأئمة المشهورين وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالقراءات[4].

- ذكر ملخص وجوه التفسير ومراتبه[1].

---

[1] انظر: محاسن التأويل: 1 / 250 – 254.

[2] انظر: محاسن التأويل: 1 / 255 – 264، وانظر: الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام – الشافعي (660هـ): *217 وما بعدها*.

[3] انظر: محاسن التأويل: 1 / 266 – 283 ، وانظر: الفوز الكبير بشرح العون الكبير: 99 وما بعدها.

[4] انظر: محاسن التأويل: 1 / 284 – 321 ، وأهم المراجع: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري: 34/1 وما بعدها، النشر في القراءات العشر لابن الجزري: 1 /7 وما بعدها، الإتقان في علوم القرآن: 1 /222 وما بعدها، مفاتيح الأصول للطباطبائي- أحد أعلام الإمامية، في بيان تواتر القراءات السبعة وعدمها.

- في بيان دقائق المسائل العلمية الفلكية الواردة في القرآن الكريم.
- بيان أن الصواب في آيات الصفات هو مذهب السلف[2].
- ذكر انطواء القرآن على البراهين والأدلة وطريقة إيرادها.
- بيان شرف علم التفسير مشيراً إلى أن أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن وتأويله[3].

هذا وقد استغرقت هذه المقدمة المهمة في أصول التفسير– الجزء الأول بكامله من التفسير وهو (352) صفحة مع الفهرس، ويستحق أن يكون كتاباً مستقلاً في منهجية التعامل مع القرآن الكريم. ولم يكن هذا العرض الموجز للمسائل التي تناولها الإمام القاسمي وللمراجع التي استعان بها في نقل ما نقل– إلا لبيان سعة الاطلاع والخبرة العميقة في مجال العلوم الإسلامية ومصادرها، وتنوع جوانب شخصية الشيخ العلمية وحرصه على الإفادة من العلماء السابقين على اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم.

---

(1) انظر: محاسن التأويل: 1 / 322 – 331 ، وانظر: فاتحة الكتاب تفسير الأستاذ الشيخ محمدعبده:5–16.

(2) انظر: محاسن التأويل: 1 / 339 – 347، وانظر: إلجام العوام عن علم الكلام للغزالي: 4 – 26،طريق الهجرتين لابن قيم الجوزية(751هـ):424–430.

(3) انظر: محاسن التأويل: 1 / 348 – 349، وانظر: مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة للإمام الراغب الأصفهاني: 75 – 76 ، 91 – 92.

المطلب الثاني :طريقته العامة في التفسير ومنهجه فيه

تناول الشيخ القاسمي تفسير القرآن الكريم سورة سورة على ترتيبه الموجود في المصاحف، وسار في ذلك على منهج متميز متأثراً بالمفسرين الكبار الذين نقل عنهم من أمثال الإمام جار الله محمود الزمخشري (538هـ) صاحب تفسير ((الكشاف))، والإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي (606هـ) صاحب تفسير ((مفاتيح الغيب))، والإمام عبد الله بن عمر البيضاوي (685هـ) صاحب تفسير: ((أنوار التنزيل وأسرار التأويل)) وغيرهم[1].

وتتلخص طريقته[2] العامة في تفسيره في أنه– حينما يقدم على تفسير أيِّ سورة من السور القرآنية– يبدأ بذكر اسمها ووصفها بأنها مكية أو مدنية، ويشير أحياناً– إلى وجه تسمية السورة باسمها، ويذكر أكثر من اسم للسورة إذا كان لها أسماء أخرى، ويذكر عدد آياتها، ويورد – أحياناً– بعض الأحاديث الواردة في فضائلها ، ثم يصدر تفسيره للآية أو الآيات بذكر ((القول في تأويل قوله تعالى: ...)) على طريقة الإمام محمد بن جرير الطبري (310هـ) في تفسيره ((جامع البيان عن تأويل آي القرآن)) ثم يذكر آية واحدة على الأغلب أو آيتين فأكثر، ثم يبدأ بتفسيرها. وليس هناك ترتيب معيَّن في عرضه للمباحث المتعلقة بتفسير الآية، فقد يبدأ بالتفسير الأثري وما يتعلق به، فيذكر نظائر الآية المراد تفسيرها من الآيات الأخرى ليستعين بها على تفسير الآية، أو يذكر ما ورد في تفسيرها من السنة وأقوال الصحابة والتابعين، وقد يبدأُ بالنظر ؛ فيذكر المباحث اللغوية من نحو وصرف وبلاغة، أو القراءات أو غير ذلك مما يورده في توضيح معاني الآية، معتمداً– في كل ذلك– على ما ينقله من المفسرين وغيرهم المتقدمين عليه أو المعاصرين له.

ومن الأمثلة على ما تقدم:

. أنَّه عند تفسيره لسورة البقرة– يقول: ((... سورة البقرة، جميعها مدني بلا خلاف، وآيها مائتان وست وثمانون، وقد صحَّ في فضلها عدة أخبار...)) ثم يذكر عدداً من الأحاديث الواردة في فضلها مشيراً إلى أماكن وجودها في الكتب الحديثية من الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها، فيقول:

((.. منها ما في مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: { لا تجعلوا بيوتكم قبوراً؛ فإنَّ البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان)) وقال الترمذي: حسن صحيح[3].

وروى ابن حبان في صحيحه عن سهل بن سعد قال، قال رسول الله ﷺ: { إن لكلِّ شيء سناماً وإن سنام القرآن البقرة وإنَّ من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام }[4].

وروى مسلم عن أبي أمامة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اقرؤوا القرآن فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه اقرأوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو كأنهما

---

[1] هناك تشابه كبير بين مقدمة تفسير البيضاوي ومقدمة تفسير القاسمي– ما عدا القواعد التفسيرية التي ذكرها– وكأن مقدمة القاسمي شرح لما تضمنته مقدمة الإمام البيضاوي. انظر: تفسير البيضاوي: 2 ، ومقدمة محاسن التأويل: 1/ 5– 6.

[2] قصدت بالطريقة العامة، طريقة عرضه للمعلومات والأغراض التفسيرية وترتيبها، ونوعيتها، وبالمنهج: الأصول والقواعد التي يعتمد عليها في تفسير الآية – الباحث.

[3] مسند الإمام أحمد:(7821)224/13، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في البيت (780) 6 / 400، سنن الترمذي ،كتاب ثواب القرآن، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي:(2780)94/8.

[4] صحيح ابن حبان. بترتيب ابن بلبان، كتاب الرقائق، باب قراءة القرآن (780) 59/3.

فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة .. [1])) ثم يشرح بعض الألفاظ الواردة في الحديث الأخير، ويتابع قائلاً: ((.. القول في تأويل قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم (آلم) ..)) [2] ثمَّ يفسِّر الآية مستعرضاً أغراضها التفسيرية.

– وأنه– عند تفسيره لسورة آل عمران– يقول:

((...سورة آل عمران، وهي مدنية. مائتا آية أو إلاَّ آية، سميت بذلك؛ لأَن اصطفاء آل عمران وهم: عيسى ويحيى ومريم وأمها نزل فيه منها ما لم ينزل في غيره، إذ هو بضع وثمانون آية. وقد جعل هذا الاصطفاء دليلاً على اصطفاء نبينا محمد ﷺ وجعله متبوعاً لكل محبٍ لله ومحبوبٍ له...)).

ثم يشير إلى ستة أسماء أخرى للسورة مع الإشارة إلى وجه التسمية بكلٍ منها قائلاً:

((... وتسمى الزهراء؛ لأَنَّها كشفت عما التبس على أهل الكتابين من شأن عيسى عليه السلام والأَمان؛ لأَنَّ من تمسَّك بما فيها أَمن من الغلط في شأنه، والكنز؛ لتضمنها الأَسرار العيسوية، والمجادلة؛ لنزول نيّف وثمانين آية منها في مجادلة رسول الله ﷺ نصارى نجران، وسورة الاستغفار؛ لما فيها من قوله: ﴿ **وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ** ﴾ [آل عمران : 17] وطيبة؛ لجمعها من أصناف الطيبين في قوله: ﴿ **الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ** ﴾ [آل عمران: 17] إلى آخره..)) ثم يذكر المصدر الذي نقل هذه المعلومات منه، ويختم الفقرة ببيان المراد بـ ((عمران))، فيقول: ((.. والمراد بـ ((عمران)) هو والد مريم أم عيسى عليهما السلام كما يأتي التنويه به في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [آل عمران: 33]..)) ثم يبدأ بتفسير السورة بقوله: ((... القول في تأويل قوله تعالى: ...)) [3] ويذكر ثلاث آيات من سورة آل عمران ويفسِّرها حسب طريقته.

–وعند تفسيره لسورة النَّبأ– يقول: ((.. وتسمى سورة ((عم يتساءلون)) وهي مكية وآيها أربعون)) [4] ولا يزيد على ذلك، ثم يبدأ بتفسير السورة على طريقته المعهودة. وأهم ما يميز تفسير القاسمي عن بقية التفاسير – في الاستعانة بالمراجع العلمية– هو أن القاسمي ينقل الصفحات الطويلة حرفياً من الكتب السابقة، ولا يقتصر على كتب التفسير، وإنَّما ينقل عن كتب أصول الدين والفقه وأصوله والحديث ومصطلحه، والتصوف وغير ذلك– كما سبقت الإشارة. ويمكن القول بأن أكثر ما هو موجود في تفسير القاسمي منقول حرفياً من المراجع العلمية السابقة عليه والمعاصرة له– على اختلاف أنواعها. وتظهر دقته العلمية وبراعته في انتقائه للمباحث المتعلقة بتوضيح مضمون الآية وموضوعها– التي ينقلها من هذه المراجع[5].

وأما منهجه العلمي في تفسيره، فقد أشار إلى فقرات هذا المنهج وقواعده وخطواته الأساسية في مقدمة تفسيره تحت عناوين مختلفة لعل أقرب هذه القواعد إلى ما نحن بصدده القاعدة الأولى التي يذكر فيها أُمهات مآخذ التفسير وهي الأسس التي يبنى عليها المنهج الأمثل في تفسير القرآن الكريم، وهي أربعة– على ما ذكره–:

---

[1] صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة: (804) 6 / 416.

[2] محاسن التأويل: 2 / 31 – 32.

[3] المصدر السابق: 4 / 748 – 749.

[4] المصدر السابق ط 2 دار الفكر: 17 / 26

[5] انظر: تفسير آيات العقيدة: 2 / 601 – 602.

النقل عن النبي ﷺ، والأخذ بقول الصحابة والتابعين، والأخذ بمطلق اللغة، والتفسير المقتضى من معنى الكلام و المقتضب من قوة الشَّرع[1]، وقبل كل ذلك الاعتماد على القرآن نفسه في تفسير القرآن ((.. فما أُجمل في مكان؛ فإنَّه قد فُسِّر في موضع آخر، وما اختصر في مكان، فقد بسط في موضع آخر)) [2]؛ فالشيخ القاسمي يسير على المنهج الذي حدده في مقدمة تفسيره، ولا يحيد عنه، وهو– في ذلك– سائر على المنهج الذي يجب أن يتبع في بيان وتوضيح معاني القرآن وإيصالها إلى الناس سليمة صحيحة بعيداً عن الاتجاهات المنحرفة التي تضرب القرآن بعضه ببعض،وأصول هذا المنهج هي مايلي:

أولا–تفسير القرآن بالقرآن؛ فمن نماذج تفسير القرآن بالقرآن عند القاسمي:

– أنه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ ..** ﴾ [الفاتحة: 7] يقول:((..أي: بطاعتك وعبادتك وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ..** ﴾ [النساء: 69] [3]..)).

– وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين** ﴾ [البقرة: 24] يشرح ألفاظ الآية وعباراتها ويلفت الأنظار إلى ما فيها من أساليب معبِّرة عن غرض الآية أوفى تعبير.. إلى أن يقول: ((.. واتقوا النار ﴿ **الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ صفة للنار مورثة لها زيادة هول وفظاعة... و ((الوَقود)) ما توقد به النار، وترفع من الحطب... والمراد بالحجارة الأصنام، وبالناس أنفسهم– حسبما ورد في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ** ﴾ الأنبياء: 98] فإنها مفسِّرة لما نحن فيه...)) [4] ويستمر في تحليل مضمون الآية وأساليبها.

– وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيم** ﴾ [البقرة: 37] يقول في بيان المراد بالكلمات معتمداً على ابن جرير الطبري (310 هـ): ((.. وهي الكلمات التي أخبر عنه أنه قالها متنصلاً بقيلها إلى ربِّه معترفاً بذنبه، وهو قوله: ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا..** ﴾ الآية [الأعراف: 23] فدعا بها لكي تكون عنواناً له ولأولاده على التوبة (فتاب عليه)..)) [5].

ويدخل في هذا المجال ما يقوم بجمع عدد من الآيات التي تتعلق بموضوع الآية لتكتمل الصورة، وتتوضح جوانب الموضوع من ذلك:

– ما يذكره عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء: 165] حيث يشير إلى أن المولى سبحانه أرسل رسله إلى الناس لئلا يكون لهم معذرة يعتذرون بها يوم القيامة، وأن المعذرة سميت حجة مع أنه ليس لأحد عليه حجة في فعل من أفعاله، بل له أن يفعل ما يشاء للتنبيه على أنها في القبول عنده بمنزلة الحجة القاطعة بمقتضى كرمه ورحمته، فيقول: ((.. ﴿ **لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ** ﴾ يوم القيامة، أي: معذرة يعتذرون بها قائلين: لولا أرسلت إلينا رسولاً، فيبين لنا شرائعك، ويعلمنا ما لم نكن نعلم من أحكامك لقصور القوة البشرية عن إدراك جزئيات المصالح، وعجز أكثر

---

[1] انظر: محاسن التأويل: 1 / 7 – 8.

[2] مقدمة في أصول التفسير: 93.

[3] محاسن التأويل: 23/2.

[4] المصدر السابق: 2 / 73 – 74.

[5] المصدر السابق: 2 / 110. وانظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن:579/1.

الناس عن إدراك كلياتها كما في قوله ﷻ: ﴿ **وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى** ﴾ [طه: 134] وإنما سميت حجة مع استحالة أن يكون لأحد عليه سبحانه حجة في فعل من أفعاله، بل له أن يفعل ما يشاء كما يشاء- للتنبيه على أن المعذرة في القبول عنده تعالى بمقتضى كرمه ورحمته بعباده بمنزلة الحجة القاطعة التي لا مرد لها، ولذلك قال تعالى:﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا** ﴾ [الإسراء: 15]...)) [1] ثم يشير إلى المرجع الذي نقله منه وهو تفسير ((إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)) للإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادي (982 هـ) [2] وينقل- بعد ذلك- بعض ما كتبه الشيخ محمد عبده في ((رسالة التوحيد)) تحت عنوان: حاجة البشر إلى الرسالة[3].

ويأتي في هذا المجال الإشارة إلى الآيات المخصصة للعام والمقيدة للمطلق والمفصلة للمجمل[4] وغيرها.

ثانيا-تفسير القرآن بالسنة:

وأما اعتماده على السنة في تفسير الآيات فقد كان لها النصيب الوافر في تفسيره لأن السنة النبوية مفسِّرة للقرآن ومبينة له كما في قوله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون** ﴾ [النحل: 4].

وقد بيَّن ذلك في القاعدة الأولى من القواعد التي ذكرها في مقدمة تفسيره- كما سبقت الإشارة إلى ذلك- فقال في معرض حديثه عن أمهات مآخذ التفسير: ((النقل عن النبي ﷺ وهذا هو الطراز المعلم. لكن يجب الحذر من الضعيف منه والموضوع فإنه كثير...)) [5] وقد التزم القاسمي بما ذكره قدر استطاعته، فلا يكاد يقع فيما وقع فيه غيره من المفسرين في الاستدلال بالأحاديث الضعيفة والموضوعة في كثير من القضايا التفسيرية، وكثيراً ما يعزو كل قول لقائله وكل حديث لراويه ومخرجه كما مرَّ سابقاً.

ومن نماذج اعتماده على السنة النبوية في توضيح الآية وبيان مراميها وأهدافها وتوسيع أفق الموضوع المتحدث عنه:

- أنه- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ** ﴾ [البقرة/ 187] يذكر عدداً من الأحاديث في بيان المراد بقوله (**حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ**) منها:

- ما رواه الشيخان ((.. واللفظ لمسلم- عن عدي بن حاتم ﷺ قال: لما نزلت) **حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ** (قال له عديٌّ [بن حاتم]: يا رسول الله! إني أجعل تحت وسادتي عقالين: عقالاً أبيض وعقالاً أسود أعرف الليل من النهار، فقال رسول الله ﷺ: إنَّ وسادتك لعريض. إنما هو سواد الليل وبياض والنهار..)) [6]، ومنها- أيضاً-((.. وقد روى مسلم عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: { لا يغرنكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا } ... قال: يعني معترضاً.

---

[1] محاسن التأويل: 5 / 1752 – 1754.

[2] انظر:609/1.

[3] انظر: 84 وما بعدها.

[4] انظر: محاسن التأويل: 3 / 378 عند تفسيره للآية [173] من البقرة، والآية (145) من الأنعام، 2 / 133 عند تفسيره للاية (58) من البقرة، وغيرها.

[5] المصدر السابق: 1 / 7.

[6] انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة البقرة، باب قوله: كلوا واشربوا..(4239)1640/4، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصيام، باب الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر (1089) 7 / 163.

وفي لفظ آخر عنه: { لا يغرنكم نداء بلال ولا هذا البياض حتى يبدو الفجر– أو قال: حتى ينفجر الفجر ... }[1] إلى آخر ما ذكره في هذا المجال[2].

– وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ [آل عمران: 200] يشرح الآية ويذكر عدداً من الأحاديث التي ترغب في الرباط، وتبين كثرة أجره ثم يقول: ((... هذا ومن الوجوه في قوله تعالى: (رَابِطُواْ) أن يكون معناه انتظار الصلاة بعد الصلاة..)) ثم يذكر أكثر من حديث للاستدلال على هذا الوجه، منها: ما أخرجه مسلم[3] ((عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط)) [4]..)).

وكثيراً ما يذكر الشيخ القاسمي أحاديث تتفق مع الآية من حيث المعنى والمقصود لزيادة توضيح الآية وبيان مراميها من ذلك:

– ما يذكره في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم..﴾[النساء: 1] من الآيات والأحاديث الواردة في صلة الرحم، وكذلك يذكر تحت لفظ ((تنبيه)) بعض المسائل المتعلقة بالآية، منها قوله: ((وقد ورد في هذا الباب أحاديث وافرة ..)) [5] فذكر مجموعة من الأحاديث.

هذا بالإضافة إلى الأحاديث التي يوردها في فضل بعض الآيات والسُّور– وفي الاستدلال لبعض القضايا الفقهية والعقدية [6].

ونظراً لموقفه من بعض المسائل الخلافية، وأثر هذا الموقف على بعض الأحاديث الواردة فيها، وتحليله لها وتوجيهها– اتهم[7] بأنه يرد أحاديث صحيحة في مواضع، ويحتج بأحاديث واهية في مواضع أخرى– ومن هذه المواقف والمسائل:

– موقفه من مسألة سحر النبي ﷺ، وذلك عند تفسيره لسورة ((الفلق)) [8] حيث ينقل عن بعض المفسرين وأصحاب الحواشي ما يتعلق بترك حديث سحر النبي ﷺ وسبب الترك، ثم يقول: ((ولا غرابة في أن لا يقبل هذا الخبر لما برهن عليه وإن كان مخرجاً في الصحاح وذلك؛ لأنه ليس كل مخرج فيها سالماً من النقد سنداً

---

[1] انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصيام، باب صفة الفجر التي تتعلق به أحكام الصوم، (1094) 7 / 167 – 168.

[2] انظر: محاسن التأويل: 3 / 455 – 456.

[3] انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (251) 3/487 .

[4] محاسن التأويل: 4 / 1081.

[5] المصدر السابق، ط 2 دار الفكر: 5 / 6 وما بعدها.

[6] انظر: المصدر السابق: 2 / 130 عند تفسيره للآية (55) من البقرة، 6/ 2446 – 2448 عند تفسيره للآية (103) من الأنعام وغيرها.

[7] انظر: اتجاهات التفسير في العصر الحديث في مصر وسوريا، رسالة دكتوراه، إعداد: فضل حسن عباس، كلية أصول الدين جامعة الأزهر، القاهرة 1972م: 529 نقلاً: عن جهود علماء الشام في تفسير القرآن الكريم منذ القرن الرابع عشر الهجري 27.

[8] انظر: محاسن التأويل، ط 2 دار الفكر: 17 / 304 – 305.

أو معنى كما يعرفه الراسخون على أن المناقشة في خبر الآحاد معروفة من عهد الصحابة..)) ثم ينقل عن العلماء السابقين ما يفيد أن غير واحد من الصحابة ردَّ غير واحد من الأخبار التي هي صحيحة عند أهل الحديث ويناقش هذه المسألة باستفاضة لتأييد موقفه الرافض لما قيل من أن النبي ﷺ سُحر.

– وموقفه من بعض الآثار الواردة في بيان المراد بالمقام المحمود، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ [الإسراء: 79] فهو يشير إلى التفسير المشهور لدى المحققين من المفسرين، وهو أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة العظمى للفصل بين الخلائق الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، ثم ينقل رأياً آخر تحت لفظ ((تنبيه)) وهو أن المقام المحمود الذي وعد الله نبيه أن يبعثه إياه، هو أن يجلسه معه على عرشه. ثم يشير إلى تشنيع المفسر أبوالحسن الواحدي (469 هـ) على القائل به، ثم يقول: ((وليته اطلع على ما كتبه ابن جرير حتى يمسك من جماح يراعه ويبصر الأدب مع السلف مع المخارج العلمية لهم..)) [1] ثم ينقل ما قيل في شأن تخريج ذلك.

والمدقق في صنيع القاسمي في مثل هذه المواقف– يرى أن إطلاق الحكم السابق– مضمون الاتهام– ليس دقيقاً[2].

ثالثاً– تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين.

وأما اعتماده على تفسير الصحابة والتابعين؛ فإنه ينقل عنهم كثيراً– شأنه شأن غيره من المفسرين – ويعتمد عليهم مع التحليل والمناقشة والتوجيه– من ذلك:

– أنه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ..** ﴾ [البقرة: 187] يذكر تفسير ابن عباس وتلميذه عطاء بن أبي رباح في بيان المراد بالفجر، فيقول ((.. عن عطاء: سمعت ابن عباس يقول هما فجران، فأما الذي يسطع في السماء فليس يحل ولا يحرم شيئاً، ولكن الفجر الذي يستنير على رؤوس الجبال هو الذي يحرم الشراب، وقال عطاء: فأما إذا سطع سطوعاً في السماء– وسطوعه أن يذهب في السماء طولاً– فإنه لا يحرم به شراب للصائم، ولا صلاة ولا يفوت به الحج، ولكن إذا انتشر على رؤوس الجبال حرم الشراب للصيام، وفات الحج)) [3] ثم يختم الفقرة بما قاله المفسر ابن كثير الدمشقي: ((.. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وعطاء. وهكذا روي عن غير واحد من السلف رحمهم الله..)) [4].

– وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿.. **إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ..** ﴾ [المجادلة: 11] ينقل عدداً من تفاسير مأثورة عن ابن عباس وبعض المفسرين الآخرين من التابعين وغيرهم، فيقول نقلاً عن ابن كثير الدمشقي: ((.. روي عن ابن عباس والحسن البصري وغيرهما أنهم قالوا في قوله تعالى:) **إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا** (يعني في مجالس الحرب، قالوا: ومعنى قوله:) **وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا** (((أي انهضوا للقتال..)) [5] ثم يذكر أقوالاً أخرى في بيان انشزوا نقلاً عن نفس

---

[1] المصدر السابق: 10 / 268 . وانظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 15 / 43 وما بعدها.

[2] انظر: جهود علماء الشام في تفسير القرآن الكريم منذ القرن الرابع عشر الهجري: 27 – 28.

[3] محاسن التأويل: 3 / 457.

[4] المصدر السابق. وانظر: تفسير ابن كثير الدمشقي: 1 / 229.

[5] محاسن التأويل، ط 2 ، دار الفكر: 16 / 81 – 82.

المصدر: ((.. وقال قتادة) وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا (أي إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا، وقال مقاتل: إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا بها، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا إذا كانوا عند النبي ﷺ في بيته، فأرادوا الانصراف أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجاً من عنده فربما يشق ذلك عليه ﷺ وقد تكون له الحاجة فأمروا أنهم إذا أمروا بالانصراف أن ينصرفوا لقوله تعالى: ﴿ **وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا** ﴾ [النور: 28]..)) [1] ثم يوفق بين هذه الأقوال انسجاماً مع ما ذكره في مقدمة كتابه[2] من أن أغلب ما صح عن السلف من الخلاف في التفسير هو اختلاف تنوع لا تضاد، فيقول: ((ولا تنافي بين هذه الأقوال؛ لأن كلاً منها تفسير للفظ العام ببعض أفراده، وما يصدق عليه إشارة إلى تناوله لذلك، لا أن أحدها هو المراد دون غيره؛ فذلك مالا يتوهم، وقد كثر مثل ذلك في تفاسير السلف..)) [3].

ومن الأمور الأخرى التي لها علاقة بالتفسير الأثري: أسباب النزول والقصص القرآني ورواية الإسرائيليات، أما أسباب النزول فقد عُني بها كثيراً؛ لأنها توضح القصة أو الحادثة التي نزلت الآية بشأنها، وقد أفرد القاسمي في مقدمة كتابه قاعدة مستقلة شرح فيها أهمية سبب النزول في فهم الآية وأثره على تفسيرها، ونقل كلاماً طويلاً عن العلماء السابقين الذين كتبوا في هذا المجال[4]. وهو في إيراده لأسباب النزول لا يكتفي بالنقل، بل يناقش ويحلل ويرجح ويوفق بين الروايات إن تعددت وسأكتفي بذكر نموذجين لذلك:

الأول: ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ..** ﴾ [آل عمران: 188] إذ يشير إلى روايتين في بيان سبب نزول الآية ثم يوفق بينهما، فيقول: ((... روى الإمام أحمد عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن مروان قال: اذهب يا رافع (لبوابه) إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئٍ منا فرح بما أُوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم وهذه، إنما أنزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُون ۞ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم** ﴾ وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيءٍ فكتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه...)) [5] ثم يشير إلى من خرَّج الحديث من أصحاب المصنفات الحديثية، ثم يضيف– مشيراً إلى الرواية الثانية– قائلاً: ((.. وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رجالاً من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو وتخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه، وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ..** ﴾..)) [6].

---

[1] المصدر السابق: وانظر: تفسير ابن كثير الدمشقي: 4 / 348 – 349.

[2] انظر: محاسن التأويل: 1 / 17.

[3] محاسن التأويل، ط 2 دار الفكر: 16 / 82.

[4] انظر: محاسن التأويل: 1 / 22 – 31.

[5] محاسن التأويل: 4 / 1063 – 1064. وانظر: مسند الإمام أحمد: (2712)4 / 444 – 445.

[6] المصدر السابق. انظر: صحيح الإمام البخاري، كتاب التفسير، سورة آل عمران، باب (لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا) (4292) 4 / 1664 – 1665.

ثم يعلق على الروايتين بقوله: ((ولا منافاة بين الروايتين؛ لأن الآية عامة في جميع ما ذكر، ومعنى نزول الآية في ذلك وقوعها بعد ذلك، لا أن أحد الأمرين كان سبباً لنزولها ..)) [1] ويعد هذا الأمر من قبيل تعدد الأسباب والنازل واحد.

الثاني: مناقشته بعض الصيّغ المستعملة من قبل علماء السلف– التي تحتمل السببية وغيرها وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون** ﴾[الأعراف: 204] فهو يقول: ((... روي عن كثير من السلف أن الآية نزلت في الصلاة، وعن بعضهم: فيها وفي الخطبة يوم الجمعة، وعن بعضهم فيهما وفي خطبة الأضحى والفطر. وقد قدمنا في مقدمة الكتاب مصطلح السلف في قولهم: ((نزلت هذه الآية في كذا)) وبينا أنه قد يراد بذلك أن الآية تشمل ذلك الشيء لدخوله في عمومها لا أنه سبب لنزولها، وذلك في بعض المقامات وما هنا منه..)) [2] ثم يذكر ما يؤيد ذلك من كلام المفسرين.

وأما موقفه من القصص القرآني والإسرائيليات– فإنه– في الوقت الذي يناقش أحياناً بعض ما ذكره المفسرون في شأن القصص الواردة في القرآن مستعيناً بالمحققين من المفسرين من أمثال ابن كثير الدمشقي وغيره يصرح أحياناً أخرى برد كثير مما ذكره المفسرون من الإسرائيليات في تفاسيرهم، وما لم يصرح برده وهو قليل فقد ساقه بصيغة التمريض، ومن نماذج ذلك: أنه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِين ۞ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِين ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم ۞ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِين** ﴾ [الشعراء: 173 – 176] يؤكد على أن الآية تتحدث عن أمة واحدة، ويردُّ القول القائل بأنهم أُمتان، فيقول: (... وهم أهل مدين ووهم من زعم أنهما أمتان أُرسل إليهما شعيب عليه السلام ؛ فإنهم أمة واحدة كانوا يقطنون ((مدين)) أُضيفوا إليها تارة، وأخرى إلى ما حوتها من الأيكة، وهي الأشجار الكثيرة الملتفة المجتمعة في مكان واحد..)) [3] ثم ينقل كلام الحافظ ابن كثير الدمشقي فيقول: ((.. قال الحافظ ابن كثير: والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيٍ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء؛ فدل ذلك على أنهما أمة واحدة ..)) [4].

– وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِين ۞ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين** ﴾ [النمل: 43 – 44] يشرح الآية باختصار ثم يذكر تحت لفظ ((تنبيهات)): ((.. الأول– روى كثير من المفسرين ههنا أقاصيص لم تصح سنداً ولا مخبراً. وما هذا سبيله فلا يسوغ نقله وروايته..)) ثم ينقل عن ابن كثير ما قال في شأن هذه الروايات إلى أن يقول: ((.. والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم كروايات كعب [الأحبار] ووهب [ابن منبه] سامحهما الله تعالى فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان، ومما لم يكن، ومما حرف وبدل ونسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ولله الحمد والمنة ..))

---

[1] محاسن التأويل: 4/ 1064. وانظر: أيضاً: 3/344 – 346 عند تفسيره للآية [158] من سورة البقرة.

[2] محاسن التأويل ط 2 دار الفكر: 7 / 329 – 331. وانظر: تفسير ابن كثير: 2/292 – 293.

[3] المصدر السابق: 13 / 40.

[4] المصدر السابق، وانظر: تفسير ابن كثير: 3 / 358.

ثم ينقل عن التوراة فصولاً من أسفار.. إلى أن يقول: ((.. وقد ذكرنا غير مرة أن القرآن الكريم لا يسوق أنباء ما تقدم سوق مؤرخ بل يقصها موجزة ليتحقق أنه مصداق ما بين يديه ومهيمن عليه، ولينبه على أن القصد منها موضع العبرة والحكمة ومثار التبصر والفطنة..))[1] إلى آخر ما يقول ويتكرر منه مثل هذا الموقف في مواضع عديدة [2].

رابعاً– اعتماده على اللغة العربية بعلومها المختلفة في بيان وتوضيح معاني الآيات وما انطوت عليه من الأساليب البلاغية مستشهداً بالشواهد العربية، من ذلك:

– ما يذكره عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا** ﴾ [نوح: 13] إذ يفسر المراد بـ ((يرجون)) فيذكرمعنيين، ويستشهد على المعنى الثاني بشاهد شعري، يقول: ((أي لا ترون له عظمة؛ إذ تشركون معه مالا يسمع ولا يبصر، فنفي الرجاء مراد به نفي لازمه وهو الاعتقاد مبالغة. وجوِّز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف أي: ما لكم لا تخافون عظمة الله، ومنه قوله: إذا لسَعَتْه النحلُ لم يرجُ لسْعَها[3] ..)) [4].

– وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيمًا** ﴾ [النساء: 70] يعرب مواضع من الآية للوقوف على أسلوبها ودقة تأدية غرضها، فيقول:

((... (ذلك): مبتدأ، إشارة إلى ما للمطيعين من الأجر ومزيد الهداية ومرافقة المنعم عليهم أو إلى فضل هؤلاء المنعم عليهم ومزيتهم. فالمشار إليه إما جميع ما قبله أو ما يليه ((الفضل)) صفة ((من الله)) خبره، أي ذلك الفضل العظيم من الله تعالى لا من غيره...)) ثم يذكر وجهاً آخر من الإعراب وما يترتب عليه من المعنى، فيقول: ((.. أو (الفضل): خبر و (من الله) حال، والعامل فيه معنى الإشارة، أي ذلك الثواب لكمال درجته كأنه هو الفضل وأن ما سواه ليس بشيء موجوداً وكائناً من الله تعالى..)) [5].

فالصناعة النحوية والأساليب البلاغية واللطائف والفوائد موجودة بكثرة في تفسير القاسمي، ففي تفسيره للآية (11) من فصلت، يقول: ((.. وكذا الحال في (ائتيا طوعاً أو كرهاً) فإنهما لما نزلا– وهما من الجمادات– منزلة العقلاء إذْ أمرا وخوطبا على طريق المكنية أو التمثيلية– أثبت لهما ما هو من صفات العقلاء من الطوع والكره ترشيحاً...)) ثم يشير إلى ما يترتب على إعراب المصدر حالاً، فيقول: ((.. وهما مؤولان بـ ((طائع وكاره))؛ لأن المصدر لا يقع حالاً بدون ذلك، ويجوز كونهما مفعولاً مطلقاً. وإنما قال ((طائعين)) بجمع المذكر السالم مع اختصاصه بالعقلاء الذكور. وكان مقتضى الظاهر ((طائعات)) أو ((طائعتين)) نظراً إلى الخطاب والإجابة والوصف بالطوع والكره..)) [6] وفي تفسيره للآية [174] من البقرة يقول: ﴿ **أُولَـئِكَ مَا**

---

[1] محاسن التأويل، ط 2 دار الفكر: 13 / 70– 71. وانظر: تفسير ابن كثير: 3 / 378 – 379.

[2] انظر: محاسن التأويل: 2 / 156 عند تفسيره للآية: [73] من البقرة: 14 / 68 ط 2 دار الفكر عند تفسيره للآية [14] من سورة يس.

[3] قائله: أبو ذؤيب الهذلي. والبيت بتمامه:

إذا لسعته النحل لم يرجُ لسْعَها وخالفها في بيت نُوبٍ عَواسِل

انظر: ديوان الهذليين: 143 ، لسان العرب: 14 / 310 – 311 (رجا).

[4] محاسن التأويل، ط 2 دار الفكر: 16 / 294 – 295.

[5] المصدر السابق: 5 / 302.

[6] محاسن التأويل ط2دار الفكر: 14 / 259 .

يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ ﴾ أي ما يستتبع النار ويستلزمها؛ فكأنه عين النار، وأكله أكلها و (في بطونهم) متعلق بـ (يأكلون)، وفائدته: تأكيد الأكل وتقريره ببيان مقر المأكول..)) ثم يشير إلى فائدة ذكر ((في بطونهم)) فيقول: ((.. وذكر ((في بطونهم)) تنبيهاً على شرههم، وتقبيحاً لتضييع أعظم النعم لأجل الطعم الذي هو أخس متناول من الدنيا..)) [1] إلى آخر ما يقول في مثل هذه المواضع.

خامساً– أغراض تفسيرية أخرى يمكن الإشارة إليها بإيجاز:

ومن الأغراض التفسيرية الأخرى التي يهتم بها الإمام القاسمي، ويذكرها في تفسيره:

– اهتمامه بذكر المناسبات بين الآيات في كثير من الأحيان، من ذلك ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ...** ﴾ [آل عمران: 180] إذ يقول: ((.. اعلم أنه تعالى لما بالغ في التحريض على بذل النفس في الجهاد في الآيات المتقدمة شرع ههنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله، وبين الوعيد الشديد لمن يبخل ببذله فيه..)) [2].

– اهتمامه بذكر القراءات وتوجيهها والدفاع عنها وذكر أثرها على المعنى والأحكام الشرعية المستنبطة من الآية، من ذلك:

– أنه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **مَلِكِ يَوْمِ الدِّين** ﴾ [الفاتحة: 4] يشير إلى القراءات الواردة في ((مالك)) ويذكر ما سطرته أقلام المفسرين في وجوه المفاضلة بين قراءة ((ملك)) وقراءة ((مالك)) ويختم الفقرة ببيان أن القراءتين من القراءات المتواترة[3].

– وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ .. **وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ** ﴾ [المائدة: 6] يشير إلى القراءتين المتواترتين الواردتين في ((وأرجلكم)) وأثرهما على صفة طهارة الرجلين، فبعد أن ذكرهما وهما قراءة النصب والجر– يقول: ((.. ومن هاتين القراءتين تشعبت المذاهب في صفة طهارة الرجلين؛ فمن ذاهب إلى أن طهارتهما الغسل، ومن ذاهب إلى أنهما المسح، ومن مخير بينهما، ولكل من هذه المذاهب حجج وتأويلات وأجوبة ومناقشات نسوق شذرة منها..)) [4] ثم يسوق ما ذكره على صفحات عديدة[5].

– وقوفه عند آيات الأحكام وذكر أقوال الفقهاء تحت عنوان ((تنبيهات)) أو ((تنبيه)) أو ((فوائد)) أو ((مسائل)) ومناقشتها، واستعراض أدلتهم، والتدخل في ترجيحها– أحياناً– معتمداً على الأدلة من القرآن والسنة وغيرهما من المرجحات، من ذلك:

– أنه عنده تفسيره لقوله تعالى:) **وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ..** ([النساء: 101] وبعد تفسير الآية يذكر تحت عنوان ((تنبيه)) أقوال الفقهاء من السلف والخلف في بيان المراد بالآية، فيشير إلى قول الجمهور القائلين بأن الآية واردة في تشريع صلاة السفر وبالتالي فإن المراد بالقصر هو قصر الكمية، وإلى قول بعض العلماء

---

[1] المصدر السابق: 3 / 44. وانظر: 14 / 6 عند تفسيره للآية (3) من سورة سبأ.

[2] محاسن التأويل: 4 / 1048 . وانظر: 2 / 244 عند تفسيره للآية (124) من سورة البقرة.

[3] انظر: المصدر السابق: 2 / 8 – 9. وانظر: 2 / 152 – 153 عند تفسيره للآية [67] من البقرة، 14 / 6 ط 2 دار الفكر عند تفسيره للآية [3] من سورة سبأ.

[4] محاسن التأويل ط 2 دار الفكر: 6 / 104.

[5] المصدر السابق: 6 / 104 – 112.

الآخرين من السلف مثل مجاهد بن جبر (104 هـ)، والضحاك بن مزاحم الهلالي (103هـ) وغيرهما الذين ذهبوا إلى أن الآية نازلة في صلاة الخوف، وأن المقصود بالقصر هو قصر الكيفية، ثم يستعرض أدلتهم ويناقشها على مدار صفحات طويلة[1].

- وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ..**﴾ [المائدة: 6] يشرح الآية، ثم يشير إلى أن للآية ثمرات هي أحكام شرعية، فيذكر إحدى عشرة ثمرة من ثمار الآية وهي مجموع الأحكام المستنبطة من الآية[2].

- ميله للنزعة العلمية في تفسير بعض الآيات القرآنية من ذلك:

- ما ذكره في تفسير قوله تعالى:) .. **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ** ([فصلت: 11] من المعلومات الفلكية، إذ يقول: ((.. وقال بعض علماء الفلك في تفسير هذه الآية (وهي دخان) أي ذرات أي غازات، أي سديم، ثم تجاذبت كما يتجمع السحاب فصارت كتلة واحدة فدارت ثم تقطعت وتفصلت بالقوة الدافعة، فتكونت الأرض والسماوات تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ **فَفَتَقْنَاهُمَا** ﴾ [الأنبياء: 30] أي فصلناهما فصارتا كرات من الماء في يومين أي ألفي سنة لقوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّون** ﴾ [الحج: 47]..))[3] إلى آخر ما يقوله.

- وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ..** ﴾ [البقرة: 173] ينقل أقوال أطباء عصره في مضار لحم الخنزير– المبنية على التجارب الحسية، ((فمن مضاره أنه يورث الدودة الوحيدة المتسبب من وجودها في الأمعاء أعراض كثيرة كالمغص والإسهال والقيء وفقد شهوة الطعام أو النهم الشديد، وآلام الرأس والإغماء والدوار واضطراب الفكر.. إلى غير ذلك من التعب وعسر الهضم ومضار سواها..))[4] إلى غير ذلك مما يذكره في هذا المجال.

---

[1] انظر محاسن التأويل ط 2 دار الفكر: 5 / 414 – 418.

[2] انظر: المصدر السابق: 6/ 92 وما بعدها، وانظر: 14/ 174 عند تفسيره للآية [44] من سورة [ص].

[3] المصدر السابق 14 / 257 – 258.

[4] محاسن التأويل: 3 / 382.

الخاتمة

وبعد هذه الجولة الممتعة في سيرة الشيخ القاسمي وتراثه العلمي وتفسيره ((محاسن التأويل)) يمكن أن ألخص أهم النتائج التي انتهى إليها هذا البحث المختصر وهي:

- أن الإمام القاسمي كان من أُسرة علمية عريقة في دمشق، ونشأ نشأة علمية قوية، فقد تلقى علومه المختلفة على أيدي كبار علماء دمشق، واكتسب ثقافة موسوعية لم تقف عند حدود علوم الشريعة واللغة والاجتماع، بل عنيت بما استحدثه العصر من مكتشفات ومخترعات ونظريات علمية، واستخدم ذلك كله في خدمة الدين والارتقاء بمستوى المجتمع الإسلامي في جميع الميادين.

- كان الشيخ القاسمي يتمتع بجملة من المزايا الكريمة والخصال الحميدة التي كان لها أبلغُ الأثر- بعد توفيق الله- في نجاحه والوصول إلى المكانة التي تبوأها في مجتمعه، وتفوقه في مسيرة حياته العلمية وخروجه من المحن التي تعرض لها سالماً غانماً.

- كان الشيخ القاسمي صاحب فكر نير وقلم سيال ومن المكثرين في التأليف والتصنيف في مختلف أنواع العلوم والفنون، وقد لقي تراثه العلمي قبولاً واستحساناً من العلماء وطلاب العلم من معاصريه، والذين جاؤوا بعده.

- يعدُّ تفسير القاسمي (محاسن التأويل) من أشهر المصنفات التي قام بتأليفها، وهو موسوعة علمية تفسيرية ضخمة جمعت كثيراً من أنواع العلوم الدينية في أسلوب شائق وترتيب فائق، واشتملت على بحوث مطولة في التوحيد والفقه والحديث واللغة وغيرها، وضمت بين دفتيها نقولاً كثيرة وطويلة من مختلف المصنفات العلمية العقدية والتفسيرية والفقهية والحديثية وغيرها.

- تعدُّ مقدمة تفسيره من المقدمات المميزة في تاريخ التفسير لاشتمالها على الأصول والقواعد التي يحتاج إليها من يتصدى لعلم التفسير.

- اعتمد الشيخ القاسمي المنهج الأقوم والأمثل في تفسير القرآن الكريم، ففسر القرآن بالقرآن وبالسنة النبوية الصحيحة وبأقوال الصحابة والتابعين واستعان باللغة العربية بعلومها المختلفة وقواعدها في الوصول إلى معاني الآيات وأغراضها ومراميها.

- كانت شخصية الشيخ القاسمي العلمية بارزة في تفسيره من أوله إلى آخره من خلال المناقشات والتحليلات والترجيحات ولو أدى ذلك إلى مخالفته للجمهور من العلماء في عدد من المواضع، فالرأي الذي يختاره هو الذي تؤيده الأدلة وتعضده البراهين- من وجهة نظره- بقطع النظر عن قوة ما انتهى إليه أو ضعفه.

فهرس المصادر والمراجع

1. اتجاهات التفسير في العصر الراهن، الدكتور عبد المجيد المحتسب، منشورات مكتبة النهضة الإسلامية- عمان- الأردن- ط 3 ، 1402 هـ / 1982م.

2. الإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي (911هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية- صيدا- بيروت (1408 هـ / 1988م).

3. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي (982هـ) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

4. الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الشافعي (660 هـ) دار المعرفة – بيروت 1985م.

5. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين- بيروت- لبنان، ط 6، تشرين الثاني 1984م.

6. إلجام العوام عن علم الكلام، لحجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (505هـ)، محمد علي الكتبي 1350 هـ/ 1932م.

7. إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليماني المشهور بابن الوزير (840)، دار الكتب العلمية- بيروت- ط 1 ، 1403 هـ/ 1983م.

8. البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين الزركشي (794 هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت- لبنان.

9. تفسير آيات العقيدة، الدكتور عبد العزيز حاجي، دار الصابوني- القاهرة، ط1، 1424هـ / 2004م.

10. تفسير القاسمي المسمى ((محاسن التأويل)) محمد جمال الدين القاسمي، وتحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة، فيصل البابي الحلبي.

11. تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير الدمشقي (774 هـ)، دار المعرفة- بيروت، ط 2 ، 1407هـ/1987م.

12. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام محمد بن جرير الطبري (310)، تحقيق: الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر – القاهرة، ط 1 ، 1422هـ / 2001م.

13.جمال الدين القاسمي وعصره، ظافر القاسمي، المكتبة الهاشمية- دمشق، ط 1، 1385هـ/ 1965م.

14. جمال الدين القاسمي أحد علماء الإصلاح الحديث في الشام، الدكتور نزار أباظة، دار القلم- دمشق، ط 1، 1418هـ / 1997م .

15. جهود علماء الشام في تفسير القرآن الكريم منذ القرن الرابع عشر الهجري، أحمد قباوة- رسالة ماجستير- في كلية دار العلوم- جامعة القاهرة، 1425هـ / 2004م.

16. ديوان الهذليين، القاهرة: دار الكتب المصرية 1950.

17. رسالة التوحيد، للإمام الشيخ محمد عبده، د. محمد عمارة، دار الشروق – بيروت، القاهرة، ط 1، 1414هـ / 1994م.

18. سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (279 هـ) بإشراف: عزت عبيد الدعاس، مطابع الفجر الحديثة – حمص، ط 1 ، 1387 هـ / 1767م.

19. سنن أبي داود للإمام أبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني (275 هـ)، تحقيق: محمد عوامة، مؤسسة الريان- بيروت ط ، 1 1419 هـ / 1998م.

20.شرف الأسباط، محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي، مطبعة الترقي بدمشق، ط 1، 1331هـ / 1911م.

21. شيخ الشام جمال الدين القاسمي، محمود مهدي الاستانبولي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط 1 ، 1405هـ / 1985م.

22. صحيح الإمام البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (256 هـ) ضبط وترقيم: د. مصطفى البغا، دار بن كثير، اليمامة، دمشق، بيروت ط 5 ، 1414هـ / 1993م.

23. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (739 هـ)، تحقيق: شعيب أرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 2 ، 1414هـ / 1993م.

24. صحيح الإمام مسلم بشرح النووي، مسلم بن حجاج القشيري النيسابوري (261 هـ) دار الخير- دمشق، ط 1 ، 1414هـ / 1994م.

25. طريق الهجرتين وباب السعادتين، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (751 هـ)، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، مطابع الدوحة الحديثة، الدوحة- قطر.

26. فاتحة الكتاب تفسير الأستاذ محمد عبده، كتاب التحرير، طبع بالقاهرة، 1382هـ.

27. الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين في علوم الحديث،وهو شرح الأربعين العجلونية،محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق:عاصم بهجة البيطار- دار النفائس – بيروت ط 2 ، 1406هـ / 1986م.

28. الفوز الكبير في أصول التفسير بشرح العون الكبير للبالنبوري، للإمام ولي الله أحمد ابن عبد الرحيم الدهلوي (1176 هـ) مكتبة حجاز ديوبند.

29. القاسمي ومنهجه في التفسير، الدكتور محمد بكر إسماعيل، دار المنار- القاهرة، ط1، 1411هـ/1991م.

30. قاموس الصناعات الشامية، محمد سعيد القاسمي، جمال الدين القاسمي، خليل العظم، تحقيق: ظافر القاسمي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر- دمشق ط 1 ، 1988م.

31. قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، محمد جمال الدين القاسمي، تعليق: محمد بهجة البيطار، مكتب النشر العربي– مطبعة ابن زيدون بدمشق، 1352هـ/1935م.

32. لسان العرب، العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي (711 هـ) دار صادر بيروت.

33. لمحات في المكتبة والبحث والمصادر، الدكتور محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، ط 24 ، 1426هـ / 2005م.

34. مسند الإمام أحمد، الإمام أحمد بن حنبل (241 هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤط– عادل مرشد، مؤسسة الرسالة– بيروت، ط 1 ، 1416 هـ / 1995م.

35. معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، عمر رضا كحالة، المكتبة العربية مطبعة الترقي، دمشق، 1376هـ / 1957م.

36. معجم المؤلفين المعاصرين، محمد خير يوسف، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض 1425هـ / 2004م.

37. مفاتيح الأصول، للسيد محمد الطباطبائي الكربلائي أحد أعلام الإمامية، نسخة نادرة في مكتبة الأسد الوطنية– بدون ترقيم للصفحات.

38. مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة، للإمام العلامة أبي القاسم الراغب الأصفهاني (502 هـ) تحقيق: د. أحمد حسن فرحات، دار الدعوة– الكويت، ط 1، 1405هـ / 1984م.

39. مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (808هـ) تحقيق: المستشرق الفرنسي ا.م كاترمير عن طبعة باريس 1858م، مكتبة لبنان– بيروت 1992م.

40. مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (728 هـ) تحقيق: د. عدنان زرزور، دار القرآن الكريم– بيروت، ط 1، 1391هـ / 1971م.

41.الموافقات في أصول الفقه، لأبي إسحق الشاطبي (790هـ)، دار المعرفة، بيروت– لبنان.

42. النشر في القراءات العشر، للحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري (833 هـ) دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.

43. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبي الحسن البقاعي (885هـ) خرج آياته وأحاديثه.. عبد الرزاق غالب مهدي، دار الكتب العلمية– بيروت، ط 1، 1415هـ/1995م.

– مجلة المنار، مجلد (17): ج / 7 ، مصر ، رجب 1332 هـ / يونيو 1914م.

ج 8 ، مصر، شعبان 1332هـ / يوليو 1914م.